الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب

الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولـــة السعديـــة

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف :

الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب

الدار البيضاء

١٩٥٥

اهداءات ٢٠٠٢

أ د/محمد طه الحاجري

الاسكندرية

الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصرى

كتاب



الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الدولـــة السعديـــة

الجزء الخامس



تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السعادة :
الاستاذ جعفر الناصرى — والاستاذ محمد الناصرى

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة السعدية

الخبر عن دولة الاشراف السعديين من آل زيدان

وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون : ان أصل سلفهم من ينبع النخل، من أرض الحجاز ، وانهم أشراف من ولد محمد : النفس الزكية رضى الله عنه ، واليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون فى أول ملوكهم القائم بأمر الله مثلا : هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفة بن الحسن بن أبى بكر بن على بن حسن بن أحمد بن اسمعيل ابن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن حسن المثنى ابن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فهم بنوعم السادة العلويين أشراف سجلماسة، يجتمعون معهم فى محمد بن أبى القاسم المذكور فى النسب .

ـ قالوا : والسبب فى قدوم سلفهم من الحجاز الى المغرب ، أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا ، فقيل لهم : لو أتيتم بشريف الى بلادكم كما أتى أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم ، وقد كان أهل سجلماسة جاءوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبى القاسم من أرض ينبع فى قصة ظريفة تأتى فى محلها ان شاء الله ، قالوا : فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد ، مضاهاة لاهل سجلماسة ، فعادت عليهم بركته .

واعلم أن هذا النسب الشريف المسرود آنفا فيه ــ كما قال اليفرنى ــ بتر بين

قاسم ومحمد النفس الزكية فانه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم ، وانما هو قاسم بن محمد بن عبد الله الاشتر بن محمد النفس الزكية ، ولعله سقط عن ذهول من الناسخ . وقيل الصواب انه قاسم بن حسن بن محمد ابن عبد الله الاشتر بن محمد النفس الزكية .

واعلم أيضا أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة في أخبارهم . ومن الناس من يطعن في ذلك ، ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقري صاحب « نفح الطيب » وانه صحح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ، ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا النقل ضعيف لان الشيخ المقري صرح في نفح الطيب بشرف هؤلاء السادة في غير موضع وهو من آخر ما ألف .

وممن طعن في نسبهم المولى محمد (فتحا) بن الشريف السجلماسي أول ملوك السادة العلويين ، صرح بذلك في بعض الرسائل التي كانت تدور بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها: «وقد اعتمدنا في ذلك ، يعني في عدم شرفهم، على ما نقله الثقات المؤرخون لاخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم الا من بني سعد بن بكر » اهـ .

ويحكى شائعا عن الفقيه الورع المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي — وكان من أهل الصلاح والدين — أنه كان ذات يوم جالسا مع المنصور السعدي في بعض قصوره من حضرة مراكش ، وهما مجتمعان على خوان طعام ، فقال المنصور للشيخ أبي محمد : « أين اجتمعنا يا فقيه؟ » يعني في النسب ، فقال أبو محمد : « على هذا الخوان » ويروى : «في هذا المشور» فأسرها المنصور في نفسه ولم يبدها له الى أن احتال عليه بما كان السبب في اتلاف مهجته، فكان المنصور بعد ذلك يدعو الشيخ أبا محمد فيجلسه على الرخام في زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل ، وقد اتخذ المنصور ، فيما زعموا، لبدة صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد، فاذا رآه أبو محمد

جالسا معه تجلد واستحيى أن يقوم عن السلطان ويتركه ، ويستمرلن على المذاكرة في مسائل العلم ، فعل ذلك به أياما حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكى من ذلك الى أن قضت عليه .

وأنكر هذا صاحب « نشر المثانى » ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة .

وجواب أبى محمد هذا من النوع البيانى المسمى : «بتلقى المخاطب بغير ما يترقب» على ما هو معروف في كتب الفن ، وانما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جدهم قدم من ينبع أيضا كما قدم جد العلويين ، والعلويون ينكرون ذلك كل الانكار ويقولون: انهم لم يجتمعوا معهم فى قبيل ولا دبير .

قال اليفرنى: «لكن صحح لنا غير واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الانكار ، وان المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الامام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه اه .

قلت : وهذا هو الصواب اذ مستند من يطعن فى نسبهم عدم وضوحه ، ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته فى نفس الامر ، والا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على احوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والاجداد من لدن مبدئه الى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الاجيال ، فالتنقير عن ذلك عسير جدا ، ولذا وكل الشارع أمر الانساب الى أهلها ، وجعلهم مصدقين فيها ، اذ لا تعرف غالبا الا من قبلهم . فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكا ولا بلغوا من الشهرة الى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لاحد أن يدفعهم عنه الا بقاطع ، ولا قاطع كما علمت . نعم الحكاية المسوقة فى سبب دخولهم الى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الامور .

وأما تسميتهم بالسعديين فقد قال اليفرنى : « ان هذه النسبة لم تكن لهم فى القديم ، ولا وقعت بها تحليتهم فى ظهائرهم ولا فى سجلاتهم وصدور

رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترىء أحد على مواجهتهم به ، لأنه انما يصفهم بذلك من يقدح فى نسبهم ويطعن فى شرفهم ويزعم أنهم من بنى سعد بن بكر كما قلنا ، وكثير من العامة واخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم انما سموا بذلك لان الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له » اه .

قلت: وانما نصفهم نحن بذلك لانهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف ، والله تعالى يلهمنا الصواب بمنه وفضله .

الخبر عن دولة الامير ابى عبد الله محمد القائم بامر الله وبيعته والسبب فيها

قال ابن القاضى فى «درة السلوك» : « لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة الى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله فنشأ على عفاف وصلاح ، وحج البيت الحرام ، وكان مجاب الدعوة ، ولقى جماعة من العلماء الاعلام والصلحاء العظام فى وفادته على الحرمين الشريفين ، أخبرنى بعض الفضلاء أنه لقى رجلا صالحا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه ، وكان قد رأى رؤيا وهى : أن أسدين خرجا من احليله فتبعهما الناس الى أن دخلا صومعة ووقف هو ببابها ، فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن ، وانهما يملكان الناس . ثم رجع الى المغرب وهو معلن بالدعوة ، فيقول فى كل محفل : ان ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه ، ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة ، فما زال الى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة » اه .

وقال صاحب «زهرة الشماريخ» ما صورته : «ان سبب قيام أبى عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو ، واستحكمت شوكة البرتقال ، وبقى المسلمون فى أمر مريج

لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام ، لان بنى وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس ، وانما كان لهم الملك في حواضر المغرب ، ولم يكن لهم منه بالسوس الا الاسم ، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط ، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الاحوال وكثرة الاهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا الى الشيـــخ الصالح أبى عبد الله محمد بن مبارك الاقاوى نسبة الى آقة من بلاد السوس ، فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم ، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك، وقال: «ان رجلا من الاشراف بتاجمدارت(*)من درعة يقول: انه سيكون له ولولديه شأن، فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم » فبعثوا اليه وكان من أمره ما كان » .

وقال اليفرنى : « رأيت بخط الفقيه العلامة أبى زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبى محمد عبد القادر الفاسى ما صورته : ذكرلنا الوالد عن سيدى أحمد بن على السوسى البوسعيدى ان ابتداء دولة الشرفاء بالسوس أن بعض السادة وهو سيدى بركات توسط في فداء بعض الاسارى، وأراد أن يكون مع النصارى اتفاق على أن لا يحبسوا أسيرا ، فكلمهم في ذلك ، فقالوا له حتى يكون لكم أمير ، فان ملككم قد ذهب واضمحل . قال : ثم ان بعض أهل الســـوس ساروا الى قبيلة جسيمة (*) يكتالون الطعام فأخذتهم جسيمة وأكلوا متاعهم وبضاعتهم ، فذهبوا الى شيخهم ، وكان ذا حزم وتدبير ، فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق لهم شيء فلما رجعوا الى بلادهم قالوا: ان هذا الشيخ الرئيس هو الذى يليق أن نبايعه ، فاجتمعوا وأتوه وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع ، واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الامر للدين ، ودلهم على رجل شريف كان مؤذنا بدرعة فقال لهم : ان كان ولا بد ، فاقصدوا الشريـــف

(*) تاكمدارت من أعمال فزواطة بوادى درعة قاعدتها الان هى أمزرو وتحتوى على زاكورا وزاوية البركة وسرت وغيرها اه

(*) قبيلة من ناحية اكادير من جهة الجنوب على شاطىء البحر

الفلانى فانه يذكر أن ولديه يملكان المغرب ، فقصدوه ، وحملوه الى بلادهم وبايعوه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده ، وبقى هنالك فى نحر العدو

ويروى أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لايقوم الا بالمال ، احتال بان أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل كانون ، فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لاتحصى ، لان الناس استهونوا أمر البيضة . فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتى بدلها بدرهم ففعلوا ، فاجتمع له من ذلك مال وافر ، فأصلح به شأنه وقوى به جيشه ، وكانت تلك أول نائبة فرضت فى دولة السعديين والله أعلم .

وقال ابن القاضى : « ان الامير أبا عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده آقة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فاوضه فى شأنه ، ثم عاد الى مقره من درعة ، ثم فى سنة ست عشرة بعدها بعث اليه فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل ، ودعوه الى توليته عليهم وتسليم الامر اليه ، فلبى دعوتهم ، وجاء الى قرية يقال لها تيدسى(*) قرب تارودانت . فبايعه الناس بها ، وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواء على الجهاد مجتمعة » اه .

وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقا غريبا ، ولا يخلو عن فائدة ، فلنذكر منه ما يقرب الى الصحة ، ويكون كالشرح لما يمضى أو يأتى من أخبار هذه الدولة ، قال :

لما كان السلطان أبو عبد الله الوطاسى ، يعنى البرتقالى ، أميرا بفاس ظهر فى درعة رجل شريف يعنى أبا عبد الله محمدا القائم بامر الله ، قال : وكان هذا الشريف من قراء القرآن ، ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول

(*) اسم لموضعين أحدهما بدرعة قرب تاكمدارت المتقدمة الذكر التى منها اصل السعديين ولعلها كانت مقرا لهم فيما سبق قبل الملك كما يفهم عن رسالة وجهها محمد الشيخ بن زيدان الى مولاى محمد بن الشريف السجلماسى العلوى تضمنت ما نصه: « واتنا من تيدسى احد القصور بوادى درعة الخ » وقربها من تاكمدارت يؤكد ذلك وتيدسى الاخرى توجد بالقطر السوسى قرب تارودانت ولا زال الموضعان يعرفان معا بهذا الاسم الى يومنا هذا وبالله التوفيق هـ

ولم يكن من بيت الرياسة ، وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جيله وأخلاقهم وطبائعهم ، ورأى ما وصل اليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لايصعب عليه تناوله ، فأعمل في ذلك فكره ومكره ، وصار يحض الناس على القيام بأمور دينهم والامتعاض لها ، وكان قد بعث ثلاثة من أولاده ، وهم : عبد الكبير ، وأحمد ، ومحمد الى الحجاز بقصد الحج ، وكانت لهم فصاحة ونجاحة ومعرفة بادارة الكلام ، فظهر لهم ناموس في تلك البلاد ، وأحبهم الناس لا سيما أحمد ومحمد ، ولما رجعا من مكة أقاما بفاس ، وهي يومئذ دار الملك ، وترتب أحمد في مجلس بالقرويين لتدريس العلم ، فاكتسب بذلك جاها ، وتقرب محمد الى السلطان حتى صار مؤدبا لاولاده ، وبقيا على ذلك مدة ، وهما في ذلك كله يتحببان الى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة ، والبرتقال في أثناء ذلك ملح على الثغور واستلابها من أهلها ، ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية ، فدعا ذلك الاخوين أحمد ومحمدا الى أن ندبا السلطان ، وهو أبو عبد الله البرتقالي ، الى المناداة في الناس بالجهاد اظهارا للنصح ، وهما يسران حسوا في ارتغاء ، وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصحهما وقال لهما : « لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة » فأجاباه الى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة ، فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب الى الجهاد ويحضان الناس عليه ، ويخطبان بذلك في المحافل ، ويعظان وتتبعا الحواضر والبوادي ، وتقريا الاحياء والمداشر والقرى ، الى أن وصلا الى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكراهما في أمرهما ، وانهما قد أشرفا على المراد ، وكادا يلجان الملك من بابه ، لان أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم ، فحينئذ أخذ الاب وأولاده في نشر معايب الدولة للعامة ، ويقررون ذلك بفصاحتهم ووجاهتهم ، وما أوتوه من القبول ، وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس ، واجتمعوا عليهم من كل جهة ، وصار حالهم ينمو شيئا فشيئا الى أن استبدوا على السلطان ولم يرجعوا اليه بعد » .

وقال في «نشر المثاني» : «كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستدادهم

بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت ، وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد . فاتفق أن خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الاعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد ، فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب ، وأقبل عليهما لاجل قيامهما بالجهاد، وأعطاهما عدة وخيولا كثيرة، فرجعا الى جهادهما، ثم عادا اليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصارى ونكاية وظهور، وصارا يكتبان الى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة ، فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لانفسهما » اه .

قال منويل : وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الاقصى ودرعة وأعمالهما ، وصاروا يرفعون اليهم زكواتهم وأعشارهم ، ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الاشراف الى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها ، ثم زحفوا الى آكادير لحرب البرتقال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم ، وكانوا يشيعون انهم لا قصد لهم الا في الجهاد ومحاربة عدو الدين ، ومن هو سلم له من المسلمين اذ لم يتأت لهم اذ ذاك التصريح بخلع السلطان .

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة تجاوزوا جبل درن الى بلاد حاحة والشياظمة، ثم دخلوا بسيط عبدة ، وكان بآسفي رجل متنصر اسمه يحيى ابن تافوت (*) ، احتمى بالبرتقال من السلطان ، وكان معروفا بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتقال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفا له .

ولما زحف الاشراف الى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان ، كان الظهور فيهما ليحيى، لكن أبو العباس أحمد الاعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكرا آخر وخطبهم ووعظهم وزحف الى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه الى أن انجحروا بآسفي وأغلقوه عليهم وأتيح لاحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب.

ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك، وظهر

(*) صوابه تعفف كما رأيته مكتوبا في احدى رسائله المطبوعة بأصول التاريخ المغربي.

له ان ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه ، وتحقق له ذلك مافعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لابيهم من نفوذ الكلمة بالسوس .

وكان في هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشنتوف وكان مستبدا على الوطاسي ويبذل له شيئا تافها يتقيه به ، ولما مر به هـؤلاء الاشراف في أول أمرهم داعين الى الجهاد أحسن اليهم غاية ، ولما أوقعوا وقعة آسفي أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شنتوف وأظهروا له المحبة والموالاة وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يدا واحدة وجندا واحدا عليه فأسعفهم ، وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن اليهم ،وبعد أيـام خرجوا به للصيد فسموه في خبز صغير يسمى : القرشلات فهلك للحين وصفا للاشراف مراكش وأعمالها اذ كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا اليهم ، ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الامير واستخلف أخاه محمدا الشيخ .

ولما اتصل الخبر بالوطاسي وانهم استولوا على مراكش . أقلقه ذلك ؛ ومن مكر أحمد انه بعث اليه يقول : ما أنا الا واحد من عمالك ، وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبذله لك مضاعفا ، ومع ذلك لم يطمئن اليه . ثم هلـك الوطاسي وولى مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب ، فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لأبي العباس الاعرج، وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ ، وأما عبد الكبير فانه كان استشهد قبل هذا في حرب البرتقال قرب آسفي .

ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الاشراف وانهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لابيه عزم على حربهم ، فجمع عسكرا عظيما وزحف الى مراكش فتحصن أحمد الاعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهره على عـدوه ، وفي أثناء حصار الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بان أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض اخوته فرجع الى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر الى مراكش بعسكر أعظم من الاول ، وفي هذه المرة برز اليه الاشراف خـارج

البلد ، ثم تقدموا اليه فكان اللقاء على أبى عقبة من تادلا ، ووقعت بينهم حرب هائلة ، لإن الوطاسيين كانوا يرون أن هذه الحرب هى الفيصل بينهم وبين عدوهم والاشراف كذلك . وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الاحمر سلطان الاندلس المخلوع وأبلى بلاء حسنا حتى قتل ، وكان الظهور للاشراف ورجع الوطاسى مفلولا الى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه ، وبعد هذه الوقعة استولى الاشراف على تافيلالت ، وملكوا آكادير وآسفي وآزمور ، لأن البرتقال كانوا قد تخلوا عنها ، ثم عن قريب حدث بين الاخوين النفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا ، وكانت الكرة على أحمد ، وفر ابنه زيدان الذى كان عضد أبيه فى الحروب الى تافيلالت فاستولى عليها ، واقتطعها عن عمه محمد الشيخ . ثم زحف الشيخ الى فاس فحاصرها الى أن قبض على الوطاسيين وغربهم الى درعة ، اه كلام منويل .

ثم نرجع الى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرنى وغيره.

اخبار الامير ابى عبد الله القائم فى الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه

لما استتب أمر الامير أبى عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس الى مقارعة البرتقال وجهاده ، ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده ، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصمدوا معه الى النصارى وناوشوهم الحرب، فأتاح الله للامير أبى عبدالله الفتح والنصر، ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر ، وأخرج حية الغى من جحرها ، وأعاد كلمة الاسلام الى مقرها ، فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته ، وزادهم ذلك محبة فى جانبه وتعظيما فى مكانته ، ولما فصل من جهاده عاد الى محله المذكور من تيدسى ، فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت الى ارتحاله عنها وعوده الى درعة ، فلم يزل مقيما بها الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع الى مكانه من تيدسى ، واطمأنت به دارها

وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها ، والله غالب على أمره .

عقد الامير أبى عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبى العباس الاعرج رحمهم الله تعالى

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التى رآها الامير أبو عبد الله القائم فى شأن ولديه وانهما يملكان المغرب . وفى معنى ذلك أيضا ما يحكى شائعا أن ولدى أبى عبد الله المذكور ، وهما أبو العباس الاعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن فى مكتب ، وهما صبيان ، فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ ، فأول ذلك مؤدبهما بانهما سيكون لهما شأن . فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بان أمر المغرب صائر اليهما ، فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به فى البلاد السوسية الدار ، وطاب له بها المقام والقرار ، ندب الناس الى بيعة أكبر ولديه وهو الامير أبو العباس أحمد المعروف بالاعرج فبايعوه ، وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما نذكره ان شاء الله تعالى .

انتقال الامير ابى عبد الله القائم الى افغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله

ثم ان أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا اليه أمر البرتقال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم ، وطلبوا منه أن ينتقل اليهم هو وولده ولى العهد المذكور ، فاجابهم الى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس الى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة ، وترك ولده الاصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الامور

مجيء السلطان ابى عبد الله الوطاسى (*) الى مراكش وحصاره للسلطان الاعرج بها ثم اقلاعه عنها

لما استولى السلطان أبو العباس الاعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبي عبد الله الوطاسى ، المعروف بالبرتقالى ، فأقبل في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر ، ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة ، وزحف الوطاسى الى الحضرة فنصب الانفاض عليها ووالى الرمى عليها أياما ، واشتد الامر على الناس فكان من ذهابهم الى الشيخ الغزوانى وخروجه الى باب الخميس وقوله عند اصابة الرصاصة له انها خاتمة حربهم ما قدمناه فى أخبار الوطاسيين مستوفى . ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين انما يكون فى تادلا وأعمالها على ما مر . والله أعلم .

خبر آسفي والثغور

رأيت فى تواريخ الفرنج أن البرتقال خرجوا من آسفى سنة ألف (*) وخمسمائة وثلاثين مسيحية ، وهذا التاريخ يوافقه من سنى الهجرة سنة

(*) الذى حاصر مراكش هو ابو العباس الوطاسي لان اباه ابا عبد الله مات قبل هذا التاريخ على ما عند المؤرخ كمور فى تأليفه المعنون : « بتاريخ استيلاء الشرفاء على المغرب » .

(*) قرر البرتقال اخلاء آسفى فى السنة التى ذكر المؤلف ووقع خلاف بينهم فى ذلك وبقى الامر موقوفا الى سنة ١٥٤١ ميلادية الموافقة لعام ٩٤٨ هـ فتم اخلاؤها حينئذ نهائيا لما افتتح المسلمون حصن فونتى عنوة ولما اخليت امر السلطان ابو العباس الاعرج بحراستها وتحصينها راجع صفحة ٢٧٩ وصفحة ٢٨١ من كتاب تاريخ المغرب تأليف... كواساك دوشافربيير HISTOIRE DU MAROC PAR COISSAC DE CHAVREBIERE

ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وهي وسط دولة السلطان أبي العباس . وزعم هذا المؤرخ أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ، ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث الى الجديدة بعد ما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار ، قال: وبقيت اثنى عشرة سنة وهي مخربة الى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ يعني السعدي الآتي ذكره .

وفي «النزهة» : ما يقرب من هذا فانه قال بعد ذكر ايقاع السلطان أبي العباس بنصارى السواحل ما نصه : ويقال ان النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبي أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفي وآصيلا من غير قتال » . ثم نقل هذا الخبر في محل آخر عن ابن القاضي منسوبا الى أبي عبد الله الشيخ وسيأتي ذكره في محله . وأظن أن الاخلاء كان متكررا والله أعلم . وعلى كل حال ، فذكر آصيلا هنا غير مناسب اذ هي يومئذ في جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصاراها يخرجون فرارا منها خوفا من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم ؟ ثم كان بعد هذا بين أبي العباس السعدي ، وأبي العباس الوطاسي من الحرب والسلم ما تقدم بيانه ، كوقعة آنماي ، ووقعة أبي عقبة وغيرهما مما لا فائدة في اعادته .

حدوث النفرة بين الاخوين السلطان ابي العباس الاعرج ووزيره ابي عبد الله الشيخ ومانشا عن ذلك



كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستفحال الامر بالمحل الذي وصفناه قبل ، وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنا منه وكان تحت طاعته واقفا عند اشارته ، وكان السلطان أبو العباس يستشيره في أموره ، ويفاوضه في مهماته ، ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك ، ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالك ، وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأي حازما شهما، فكانت كلمتهما واحدة ، وأمرهما جميعا،

الى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأفضى الحال الى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين ، وانصرفت كل طائفة الى متبوعها وصاحب أمرهـا ، وتقاتلا مدة ، وكانت جل القبائل السوسية صاغية الى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله الى آفغال حسبما مر ، فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبى العباس فقبض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه ، ثم أودع أخـاه وأولاده السجن ووسع عليهم فى الجرايات والنفقات ، وأصبح ملكا مستقلا بعد أن كان وزيرا ، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة .

وفى «نشر المثانى» : أن قبض الشيخ على أخيه أبى العباس الاعرج كان سنة احدى وخمسين وتسعمائة والاول أصح . ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده فى حكم الثقاف الى أن قتل (*) يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتى ان شاء الله . وكانت دولته من يوم بويع الى أن قبض عليه أخوه ثلاثا وعشرين سنة ، وكان من حجابه : محمد بن عـلى الانكراطى اليملالى ، ومحمد بن أبى زيد المنزارى ، ومن كتابه : سعيد بن على الحامدى رحمهم الله .

امر زيدان ابن السلطان ابى العباس وما كان منه

قال صاحب «درة الحجال» : اختلف الناس هل بويع لزيدان بن الاعرج بعد وفاة أبيه أم لا وقال شارح «زهرة الشماريخ» : كان زيدان بن أبى العباس بسجلماسة وبويع له بها فلم يتم امره وبقى الى أن توفى سنة ستين وتسعمائة .

(*) بل بعد قتل اخيه بثلاثة ايام لما وصل الخبر بذلك لمراكش .

الخبر عن دولة السلطان ابى عبد الله محمد المهدى المعروف بالشيخ ابن الامير ابى عبد الله القائم بامر الله

كانت ولادة السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة، ويلقب بالشيخ وبآمغار، وهو الشيخ بالبربرية، ويلقب من الالقاب السلطانية: بالمهدى. لقبه به غير واحد من أئمة عصره، ونشأ فى عفاف وصيانة، وعني بالعلم فى صغره، وتعلق بأهدابه، فاخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه الى درجة الرسوخ.

فتح حصن فونتى وآسفى وآزمور وما قيل فى ذلك

لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بأمر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه الى جهاد العدو الذى بثغوره وحصونه، وأرهف حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه، فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحى دابرهم وحسم آفتهم.

قال ابن القاضى: «كان الشيخ رحمه الله ماضى العزيمة قوى الشكيمة عظيم الهيبة، كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة غالية، فعد قواعد الملك وأسس مبانيه، وأحيى مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة، وكان له سعد وبخت عظيم فى الجهاد ويد بيضاء فى الاسلام، فتح حصن النصارى بالسوس يعنى: حصن فونتى، بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة، وكان منصورا بالرعب حتى تركوا له آسفى وآزمور وآصيلا من غير قتال ولا ايجاف عليهم» اه. ونحوه فى تاريخ البرتقاليين، زاد مؤرخهم أن ذلك كان باذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا فى أخبار الاعرج والجواب عنه، وكان فتح فونتى سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما فى النزهة، وفتح آسفى سنة ثمان وأربعين

بعدها كما فى المرآة ، وعند البرتقاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجرى .

وفى «الدوحة»(*)«لما أخلى النصارى آزمور تسارع اليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس ، والشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسى دفين تانسيفت قرب مراكش ، فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتى مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع اليها العدو فاذا به قد رجع واقتحمها عليهم وأسرهم الى أن افتكهم المسلمون ».

قال منويل : « كان فداؤهما بالفى ريال ومائتى ريال بالتثنية فيهما » ، ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج ، وكان أسيرا عند امرأة نصرانية ، ناولته كتبا للمسلمين وقالت له : « هذه كتب كانت عندى ولا حاجة لى بها فخذها اليك» ، فأخذها وخرج بها فى قفة على رأسه فكان من جملتها . كتاب «تنبيه الانام» الموضوع فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور » اه .

بناء حصن آكادير

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى « فى كتابه: «المنتقى المقصور»: كانت للامير السلطان أبى عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها أنه أول من اختط مرسى آكادير بالسوس الاقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتى على مقربة من آكادير المذكور وكان له فى اختطاطه رأى مصيب وفراسة تامة » اه .

(*) صوابه : النزهة

استيلاء السلطان ابى عبد الله محمد الشيخ على مراكش
وتجديد البيعة له بها

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالامر قد أقام بالبلاد السوسية مثابرا على جهاد العدو الى أن قلع عروق مفسدته منها، وكانت مراكش فى هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول فى دعوته ، اتقاء للوطاسيين وارتياء فى أمره الى ماذا يأول ، واستمر الحال الى سنة احدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا الى وادى نول . والله غالب على أمره .

نهوض السلطان ابى عبد الله محمد الشيخ لحرب بنى وطاس
واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له فى ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشخ على مراكش وصفت لـه أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره . وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره . فجمع الجموع وتقدم بها الى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلدا بلدا ومصرا مصرا الى أن أتى عليها أجمع وكان أول مـا ملك منها مكناسة الزيتون فانه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير .

حصار السلطان ابى عبدالله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانشريسى رحمه الله

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصارا طويلا، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له: لا سبيل لك اليها ولا يبايعك أهلها الا اذا بايعك ابن الوانشريسى يعنون : الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسى رحمه الله ، فبعث اليه السلطان المذكور سرا ووعده ومناه ، فقال له الشيخ عبد الواحد: «بيعة هذا السلطان ، يعنى أباالعباس الوطاسى، فى رقبتى ولا يحل لى خلعها الا لموجب شرعى، وهو غير موجود» وزعم بعضهم أن السلطان المذكور كتب الى أهل فاس يقول لهم: «انى ان دخلت فاسا صلحا ملأتها عدلا وان دخلتها عنوة ملأتها قتلا » فأجابه ابن الوانشريسى بابيات أغلظ له فيها منها قوله :

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا خصك المولى بفضل ولا أولى

كذا فى «النزهة» . قلت : وهذا البيت من أبيات قديمة والوانشريسى انما تمثل به لا غير . فقد ذكر العلامة (*) ابن خلدون في أخبار بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب قلعة نكور لاول الفتح أن عبيد الله المهدى العبيدى صاحب افريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه الى أمره وكتب له فى أسفل كتابه :

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفى قاهرا لسيوفكم وأدخلها عنوا وأملأها قتلا

فأجابه سعيد بن صالح بابيات من نظم شاعره الطليطلى نصها :

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا
وما أنت الا جاهل ومنافق تمثل للجهال فى السنة المثلى

(*) اصل ما ذكره ابن خلدون فى « مسالك البكرى » فقد ذكر القصة والشعر عند كلامه على قلعة نكور .

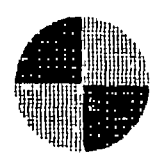
وسمتنا العليا بدين محمد   وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فلعل الشيخ كتب لاهل فاس بالبيتين الاولين والوانشريسى كان مطلعا على القضية فأجابه بجوابهما .

ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الوانشريسى ودس الى جماعة من المتلصصة بان يأخذوه ويأتوا به الى محلته محبوسا من غير قتل ، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخارى بجامع القرويين بين العشاءين وينقل عليه كلام ابن حجر فى «فتح البارى» ويستوفيه لانه شرط المحبس، فقال له ابنه «يا أبت انى قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك فى هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة .» فقال له الشيخ: «أين وقفنا البارحة؟» قال «على كتاب القدر!» قال «فكيف نفر من القدر؟ اذا اذهب بنا الى المجلس» فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين ، أحد أبواب المسجد المذكور ، فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ باحدى عضادتى الباب فضرب أحدهم يده فقطعها ، وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة .

قال الشيخ المنجور فى فهرسته : واشتهر عن الفقيه الصالح أبى عبد الله محمد ابن ابراهيم المدعو بأبى شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد فى المنام بعد مقتله فسأله عن حاله فأنشأ يقول :

لقد عمنى رضوان ربى وفضله   ولم أر الا الخير فى وحشة القبر
وانى أسأل الاله بفضله   ليحفظنى يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذاك من أمور عسيرة   كنشر الكتاب والمرور على الجسر



٢٤

استيلاء السلطان ابى عبد الله الشيخ على فاس
وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم الى مراكش

ثم ان السلطان أبا عبد الله الشيخ جد فى حصار فاس وألح عليها بالقتال الى أن ملكها واحتوى عليها .

قال فى «الدوحة»: «لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له : « اشتر منى فاسا بخمسمائة دينار » فقال له السلطان : « ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شىء لم تأت به الشريعة » فقال: « والله لا دخلتها هذه السنة » فبقى أشهرا والامر لا يزداد الا شدة ، فقال ابن السلطان ، وهو الامير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لابيه : « يا أبت افعل ما قال لك الشيخ أبو الرواين ، فانه رجل مبارك من أولياء الله تعالى . » ولم يزل به حتى أذن له فى الكلام معه ، فكلمه الامير عبد القادر ، فقال له : « ادفع المال » فدفعه اليه ، فقال له : « عند تمام السنة يقضى الله الحاجة وأمرى بامره سبحانه. » ثم ان الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة ، ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور فى الظهور الى أن انقضت السنة فدخل فاسا كما قال » اه .

وقال صاحب «الممتع» :والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الاسباب فى تمكن السلطان المذكور من الملك واخراج بنى وطاس عنه ، فانه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادى : « ياحران جىء . فانى قد أعطيتك الغرب! » وذلك قبل ظهور السعديين ، ولم يكن الناس يدرون ما يقول حتى ظهر الحران . وهو : أحد أولاد السلطان أبى عبد الله الشيخ ،وهو الذى كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد الا ما فتح له على يده .

وكان دخول السلطان الشيخ الى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين الى مراكش عدا

أبا حسون منهم فانه فر الى الجزائر مستجيرا بتركها حسبما مر .

وقال اليفرني : « لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم ، فحملوا أنفسهم على التأدب با داب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعني حتى رسخ فيهم ذلك » والله أعلم .

نهوض السلطان ابى عبد الله الشيخ الى تلمسان واستيلاؤه عليها

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركي على تلمسان ، وانقراض دولة بني زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تاقت نفسه الى الاستيلاء على المغرب الاوسط ، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع انهم أجانب من هذا الاقليم ودخلاء فيه ، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم ، لا سيما وفد فر اليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله ، وهو أبو حسون الوطاسي، فرأى الشيخ من الرأى واظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدأوه فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه الى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر ، وقتل في محاصرتها ولده الحران ، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه ، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمدى الاولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، ونفى الترك عنها ، وانتشر حكمه في أعمالها الى وادي شلف ، واتسعت خطة مملكته بالمغرب ، ودانت له البلاد ، ثم كرت عليه الاتراك وأخرجوه من تلمسان ، فعاد الى مقره من فاس، ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها، فأقام مرابطا عليها أياما فامتنعت عليه ، وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها الى الترك على مانذكره .

٢٦

امتحان السلطان أبى عبد الله الشيخ ارباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كـــان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند اشاراتهم، والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترى أن بيعة والده أبى عبد الله القائم لم تنعقد الا بهم، ولاولج بيت الملك الامن بابهم ، فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبى محمد الكوش ، فاخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله الى فاس .

وفى «الدوحة» : «لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لابى على الحسن بن عيسى المصباحى دفين الدعادع التى على وادى مضى. من عمل القصر : «ألا تخشى من هذا السلطان؟ » ،فقال : «انما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما ، والباقى متروك لمن طلبه » .

وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراء بنى مريـــن ويتهمهم بها . وبعث خديمه يوما الى الشيخ أبى عثمان سعيد بن أبى بكـــر المشترائى دفين مكناسة يطالبه بشيء من ذلك فوجده جالسا بناحية زاويته يضفر الدوم واذا بطائر، لعله اللقلاق سلح أمامه فما رفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتا متطاير الريش ، فلما رأى الخديم ذلك فزع وولى هاربا. قاله فى «الممتع» والله تعالى أعلم .



وفادة الامام ابى عبد الله الخروبى من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها

لما كان من السلطان أبى عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن على الخروبى الطرابلسى نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد ، فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة احدى (*) وستين وتسعمائة فى هذا الغرض ، فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته ، الا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه .

وفى «المرآة» : « أن أبا عبد الله الخروبى قدم المغرب الاقصى مرتين فى سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاوسط والمغرب الاقصى، فاخذ عنه كثير من أهل المغرب الاقصى ، وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله ، وفى قدمة الخروبى هذه الى مراكش أنكر على الشيخ أبى عمرو القسطلى دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم ، وقال: «انه بدعة»(*) فقالوا له : «ان الشيخ الجزولى كان يفعله» فقال لهم: «لعله باذن ، والاذن له لا يعمكم ، فان الاذن للنبى يعم أتباعه ، والاذن للولي لا يعم اتباعه» وأنكر عليه مسائل كثيرة ، وبعث اليه رسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها * رحم الله الجميع بمنه . » وتوفى الخروبى هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم .

(*) الذى فى « النزهة » سنة تسع وخمسين وهو الصواب .

(*) انظر «ممتع الاسماع» فقد اشبع القول فى مسألة حلق شعر التائب .

* راجع فهرسة المرغيثى تجدها هناك . قال فى «الممتع» وقد اجاب ابو محلى الثائر الشهير الخروبى عن رسالته منتصرا لشيخه القسطلى اه .

٢٨

قدوم ابي حسون الوطاسي بجيش الترك
واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه على بني وطاس وفرار أبي حسون الى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها الى أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني ، فاستولى على فاس ثالث صفر سنة احدى وستين وتسعمائة ، ونفى أبا عبد الله الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى .

عود السلطان ابي عبد الله الشيخ الى فاس واستيلاؤه عليها

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل الى مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون ، فاستنفر قبائل السوس ، وجمع الجموع ، وزحف الى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ ، فقتل أبا حسون واستولى على فاس ، وصفا له أمر المغرب ، وقد تقدمت هذه الاخبار مستوفاة في محلها ، وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستين وتسعمائة .

وفي «الدوحة» : أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة ، وعود السلطان الشيخ اليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضا ، والله تعالى أعلم .

٢٩

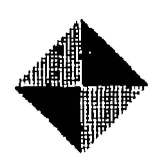
مقتل الفقيهين ابى محمد الزقاق وأبى على حرزوز والسبب فى ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس فى هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضى الجماعة بفاس أبى محمد عبد الوهاب بن محمد بن على الزقاق لانه اتهمه بالميل الى أبى حسون .

ويحكى أنه لما مثل بين يديه قال له : « اختـــر بأى شىء تمـــوت » فقال له الفقيه : « اختر أنت لنفسك ، فان المرء مقتول بما قتل به » فقال لهم السلطان : « اقطعوا رأسه بشاقور » فكان من حكمة الله وعدله فى خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضا كما سيأتى .

وفى كتاب «خلاصة الاثر» : أن الشيخ الزقاق كان يقول : « من قتل سوسيا كان كمن قتل مجوسيا » فلما قبض عليه الشيخ قال له : « أنت زق الضلال» فقال له : « لا والله ، بل أنا زق العلم والهداية » ثم قتله .

وأمر أيضا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبى على حرزوز المكناسى لكلام بلغه عنه ، وانه كان يذكره فى خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد اليه ، ويقول فى خطبته: «جاءكم أهل السوس الاقصى البعاد » ثم يذكر الشيخ ويقول : « واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم، ولبئس المهاد . » فى كلام غير هذا . وكان مقتل الفقيهين المذكورين فى ذى القعدة سنة احدى وستين وتسعمائة .



ترتيب السلطان ابى عبد الله الشيخ امر دولته وما قيل في ذلك

قال اليفرنى : « كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعا بتدبير أمـــر الرعية مستيقظا فى أموره حازما غير متوقف فى سفك الدماء » قال : « ويحكى أنه لما دخل فاسا دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق باخلاقهم . » وذكر ان ملك السعديين انمـا تأنق على يد رجل وامرأة ، فأما الرجل : فقاسم الزرهونى، فانه رتب للسلطان أبى عبد الله الشيخ هيئة السلاطين فى ملابسهم ودخولهم وخروجهم وآداب أصحابهم ، وكيفية مثولهم بين أيديهم وأما المرأة : فالعريفة بنت خجو فانهـــا علمته سيرة الملوك فى منازلهم وحالاتهم فى الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك ، فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة ، وازداد فى عيـــون العامـــــة رونقا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضريـــة، لان أهـــل الباديـــة مسترذلون فى عيون أهل الحاضرة ، قالوا : ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الاقامة بفاس .

قال فى «المنتقى» : ومن مآثره: أنه بنى جسر وادى سبو، وجسر وادى أم الربيع . وتقدم بناؤه حصن آكادير . والله تعالى أعلم .

وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة

قد تقدم لنا فى صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء فى أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك ،وعلى القول بأنها فتحت عنوة فهى خراجية كما هو مقرر فى كتب الفقه ، وتقدم لنا أيضا أن أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المومن بن علي ، وتبعه بنوه على ذلك . وقفا نهجهم بنو مرين وفى الظهير الذى كتبه السلطان أبو زيان المرينى لابن الخطيب أيام مقامـــه بسلا شاهد بذلك . ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضا .

وقول اليفرنى : ان أبا عبد الله الشيخ أول من أحدث النائبة بالمغرب يحمل على أنه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه ، وذلك أنه لما صفا للسلطان أبى عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بنى وطاس منه التفت الى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا ، فمن ذلك : أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة فى لسان العامة بالنائبة ، ولم ينزه عنها شريفا ولا مشروفا ، حتى أرباب الزوايا و المنتسبين ، ومنهم أولاد الشيخ ابى البقاءخالد المصمودى ، مع ما كان لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت فى بلاده . وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبة. وصاعا من السمن وكبشا لكل أربع نوائب ، وكانت تفرض فى زمان الشيخ على الكوانين ، وتوظف على حسب السكان ، وتدفع باعيانها ، وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم ، ولما جاء المنصور من بعدهم قوم تلك الاعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم ، ثم ازداد ذلك الى أن خرج الامر عن القياس واتسع الخرق على الراقع ، والله لا يظلم مثقال ذرة .

مراسلة السلطان سليمان العثمانى للسلطان ابى عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبى عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الاوسط ، وانه غزاهم مرتين ، وقدم الامام أبو عبد الله الخروبى ساعيا فى الهدنة فلم يرجع بطائل . وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا: «لابدلى أن أغزو مصرواخرج الترك من أجحارها »وكان يطلق لسانه فى السلطان سليمان العثمانى ويسميه بسلطان الحواتة. يعنى لان الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر فى البحر ، فأنهى ذلك الى السلطان سليمان فبعث اليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما فى «النزهة» .

وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال : لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية الى السلطان سليمان العثمانى واستيلاء السعديين على ملك المغرب

الاقصى كتب الى الشيخ يهنئه بالملك ، ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب، وبعث اليه بذلك رسولا فى البحر ، فانتهى الى الجزائر ومنها قدم الى مراكش فى البر . ولما وصل الى السلطان أبى عبد الله الشيخ أنزله على كبير الاتراك فى محلته صالح باى المعروف بالكاهية ، وكان هؤلاء الاتراك قد انحاشوا الى الشيخ من بقايا القادمين مع أبى حسون ، فضمهم اليه وجعلهم جندا على حدة، وسماهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين ، وهو لفظ تركى معناه العسكر الجديد . ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى أنفه وابرق وأرعد. وأحضر الرسول وأزعجه ، فطلب منه الجواب ، فقال: « لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر ان شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب » فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه الى أن وصل الى سلطانه وكان من أمره ما نذكره .

قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثمانى

واغتيالهم للسلطان ابى عبد الله الشيخ رحمه الله

لما خرج رسول السلطان سليمان العثمانى من عند السلطان أبى عبد الله الشيخ ووصل الى الجزائر ركب البحر الى القسطنطينية فانتهى اليها ، واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الاعظم ، وأخبره بما لقى من سلطان المغرب ، فانهى الوزير ذلك الى السلطان سليمان فأمره أن يهىء العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها ، واتفق رأيهم على أن عينوا اثنى عشر رجلا من فتاك الترك وبذلوا لهم اثنى عشر ألف دينار ، وكتبوا لهم كتابا الى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ ، ووعدوه بالمال والمنصب ان هو نصح فى اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه .

وفى «النزهة» :« أن صالحا هذا كان من ترك الجزائر جاء فى جملة الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ » والله أعلم . ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر اليه عن توجيه العمارة ، وقال : « هذا أمر سهل لا يحتاج فيه الى تقويم عمارة ، وهذا المغربى الذى أساء الادب على السلطان يأتى رأسه الى بين يديك» فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة فى البحر الى الجزائر ، ومنها يتوجهون الى مراكش فى البر ؟ ففعلوا ، ولما وصلوا الى الجزائر هيأوا أسبابا واشتروا بغالا وساروا الى فاس فى هيئة التجار، فباعوا بها أسبابهم ، وتوجهوا الى مراكش ، ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة فى أمرهم الى أن توجهت له .

وفى «النزهة» :أن هؤلاء الاتراك خرجوا من الجزائر الى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم ، ورغبوا فى خدمة الشيخ والاستجار به . ثم ان صالحا الكاهية دخل على السلطان أبى عبد الله الشيخ وقال يامولاى: «ان جماعة من أعيان جندالجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا فى جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم ان شاء الله السبب فى تملكها » فامره بادخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوها حسانا وأجساما عظاما فأكبرهم ، ثم ترجم له صالح كلامهم ، فافرغه فى قالب المحبة والنصح والاجتهاد فى الطاعة والخدمة ، حتى خيل الى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر ، فامره باكرامهم وان يعطيهم الخيل والسلاح ، ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل ، فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك فى ذلك .

وصار الشيخ يبعث بهم الى أشياخ السوس مناوبة فى الامور المهمة ليتبصروا فى البلاد ويعرفوا الناس . وكان يوصى الاشياخ باكرام من قدم عليهم منهم ، واستمر الحال الى أن أمكنتهم فيه الفرصة، وهو فى بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له: آكلكال بظاهر تارودانت، فولجوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسس ، فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه ، واحتملوه فى مخلاة ملأوها نخالة وملحا وخاضوا به أحشاء الظلماء وسلكوا طريق درعة

وسجلماسة كأنهم ارسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد ، ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس، وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتى مراكش أبو الحسن على بن أبى بكر السكتانى . والكاتب أبو عمران الوجانى .

ولما شاع الخبر بان الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقى منهم بالمغرب أغلق اخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الاموال واستعدوا للحصار ، ولما بويع لابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر الى تارودانت للاخذ بثار أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة، ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بان أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع الى فاس لثائر قام بها . ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا فى اتباعه ليلا والعيون موضوعة عليهم بكل جهة الى ان شارفوا محلة السلطان الغالب بالله فعطف عليهم ، ولما لم يمكنهم الرجوع الى تارودانت تحيزوا الى الجبل وبنوا به قياطنهم، وجعلوا عليها المتارزات من الاحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة ، فقاتلوا الى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير ، وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفا ومائتين . وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا الى الجزائر وركبوا البحر منها الى القسطنطينية ، فاوصلوا الرأس الى الصدر الاعظم ، وأدخله على السلطان سليمان فامر به أن يجعل فى شبكة نحاس ، ويعلق على باب القلعة فبقى هنالك الى أن شفع فى انزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم ، وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعديين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتى . وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة.
ولما بلغ خبر مقتله الى خليفته بمراكش القائد أبى الحسن على بن أبى بكر آزناك بادر بقتل أبى العباس الاعرج المخلوع وأولاده ذكورا واناثا كبارا وصغارا خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه . ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلى الولى الشهير بمقربةمن ضريح الشيخ الجزولى وهى القبة التى قرب الضريح المذكور تسمى قبور

«الاشراف» ، وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ فانهم حملوا جثته الى مراكش فدفنت بها قبلي جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها الى الآن ومما نقش على رخامة قبره هذه الابيات :

حي ضريحا تغمدته رحمات وظللت لحده منها غمامات
واستنشقن نفحة التقديس منه فقد هبت من الخلد لي منها نسيمات
بحر به كورت شمس الهدى فكست من أجلها السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى قنصا وأثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك أطواد العلا صعقا وارتج من بعدك السبع السموات
وشيعت نعشك المزجى الى عدن من الملائك ألحان وأصوات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضا تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه حلي دار امام الهدى المهدي جنات

بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته

كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدي ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق باهدابه ، فأخذ عن جماعة من الشيوخ ، وبلغ فيه درجة الرسوخ ، حتى كان يخالف القضاة في الاحكام ، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه ، وقع ذلك منه مرارا ، وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه .

وقال في «المنتقى» : « كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمه الله أديبا متفننا حافظا حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقي الشيبة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هرون أحفظ منه للمقطعات الشعرية وكثيرا ما ينشد :

الناس كالناس والايام واحدة والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وكان حافظا للقرآن فهما جدا ، حافظا لصحيح البخارى ، ويستحضر ما للناس عليه ، ويقول فى شرح ابن حجر : « ما صنف فى الاسلام مثله » عارفا بالتفسير وغيره ، وكان يحفظ ديوان المتنبى عن ظهر قلب ، وكان يحض على المشاورة ويقول : « لا سيما فى حق الملوك » وينشد قول المتنبى :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وكان يقول : « ينبغى للملك أن يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لان الرعية تصلح بطول أمله ، »وكان يقول : « من طول أمله أخذ تلمسان وسبتة وغيرهما » انتهى .

وقوله انه كان يحفظ ديوان المتنبى ، سببه ما ذكره فى الدوحة قال : أخبرنى الوزير المعظم أبو عبد الله محمد بن الامير أبى محمد عبد القادر بن السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف قال : « لما غدرت قبيلة المنابهة بجد السلطـان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبامحمد عبد الله ابن عمر بذلك فكتب اليه يقول : « أين أنت من قول أبى الطيب المتنبى :

غاض الوفاء فما تلقاه فى عدة وأعوز الصدق فى الاخبار والقسم»

قال : « فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبى حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد » اه . وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطـان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغرى الفقيه الفرضى الحاسب ، فقيه درعة وعالمها ، وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس، ولما عاد الى درعة سأله فقهاؤها كيف وجدت أهل السوس ؟ فقال :«وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوى ، وفقراءهم على عظيم الدعاوى ، وعامتهم على كثير المساوى » .

ومن أشياخ السلطان المذكور: الامام الشهير شيخ الجماعة بالصقـع السوسى أبو الحسن (*) على بن عثمان الشاملى ذكره فى «المنتقى» وأثنى عليه ، ومن أشياخه : علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليستنى ، أخذ عنه علوما منها التفسير . قال المنجور : « وكنت أنا قارئه بين يدى أمير

(*) صوابه ابو على الحسن

المؤمنين أبى عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له » قال : « ولما توفى الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التى توفى بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المرينى ، فخرج السلطان الينا وهو يبكى بصوت عال يفزع من سمعه ، حتى رأينا منه العجب وما سكت الا بعد مدة ، لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم ، وحضر جنازته » ، وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة ، وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء .

ومن وزرائه : الرئيس أبو الحسن على بن أبى بكر آصناك الحاحى ، وأبو عمران موسى بن أبى جمدى العمرى وغيرهم .

ومن قضاته بفاس : أبو الحسن على بن أحمد الخصاصى ، وبمراكش: أبو الحسن على بن أبى بكر السكتانى رحم الله الجميع .

وكان للسلطان أبى عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء ، ومن أنجبهم أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان ، ومنهم أبو محمد عبد الله الغالب بالله ، وأبو مروان عبد الملك الغازى ، وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بعد أبيهم ، ومنهم : الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفى فى حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة .

وفى «نشر المثانى» : أنه قتل مخنوقا بأمر أخيه، عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فالله أعلم . ومنهم عثمان وعبد المومن ، وعمر وغيرهم .

قال المنجور فى فهرسته : « حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبى عبد الله الشيخ ، وقد حضر عنده أولاده الصناديد الامراء : المولى محمد الحران، والمولى عبد القادر ، والمولى عبد الله ، فدخل شيخنا الامام أبو عبد الله اليستنى فلما نظر اليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح :

فقلت عسى أن تبصرينى كأنما بنى حوالى الاسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم » .

٣٨

الخبر عن دولة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله
ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله كما رأيته مرقوما على الرخامة التى على قبره فى رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، وكان رحمه الله أدعج العينين ، مستدير الوجه عريضه ، أسيل الخدين ، مشرف الوجنتين ، ربعة للقصر ، ونشأ فى عفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ، وأخذ بطرف صالح من العلم ، وكان ولى عهد أبيه، وكان يلقب من الالقاب السلطانية: بالغالب بالله لقبه به غير واحد من الائمة . ولما وافته الانباء بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد .

وذكر صاحب «زهرة الشماريخ» : أن الفقيه الميقاتى المعدل بمنار القرويين أبا عبد الله المزوار ، وكان بصيرا بعلم الاحكام والحدثان ، بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب ، وقد ابهار الليل واسود ديجوره ، رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط ، وكانت بينه وبين ابنه أبى محمد عبد الله وصلة ، فأسرع فى الذهاب اليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقا فاستأذن الموكلين به فى فتحه فأبوا ، فقال لهم : « انى جئت الى الخليفة ، يعنى خليفة السلطان ، فى أمر مهم عنده ، وان لم تعلموه بمكانى الساعة لحقكم منه غدا ما تكرهون ، فانذروا الخليفة المذكور به فحمل اليه ، وسأله عن قضيته ، فاخبره بما رأى ونعى اليه أباه ، فلم يكذب فى ذلك وتهيأ واستعد ، فلم تمض الا أيام قلائل حتى وافته الانباء بمقتل أبيه فى تلك الساعة التى قال له المعدل المذكور ، فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها ، فلستوسق له الامر وتمهد له ملك أبيه . وكان ذلك كله فى المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة .

مجىء حسن بن خير الدين التركى الى فاس ورجوعه منهزما عنها

قال ابن القاضي : لما ولى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه الى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله .

وفى سنة خمس وستين وتسعمائة ، فى جمدى الاولى منها ، غـــزاه حسن بن خير الدين باشا التركى صاحب تلمسان فى جيش كثيف من الاتراك، فخرج اليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من وادى اللبن من عمالة فاس ، فكانت الدبرة على حسن ، فرجع منهزما يطلب صياصى الجبال الى أن بلغ الى باديس ، وكانت يومئذ للترك ، ورجع الغالب بالله الى فاس لكنه لم يدخلها لوباء كان بها يومئذ ، ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لامر نقمه عليه فقتل فى السنة المذكورة . والله تعالى أعلم .

بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك

قال اليفرنى : « وفى عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين من مراكش ، والسقاية المتصلة به التى عليها مدار المدينة المذكور ، والمارستان الذى ظهر نفعه ووقف عليه أوقافا عظيمة، قلت : وهذا المارستان هو الذى بحومة الطالعة قرب السجن ، وقد اتخذ اليوم سجنا للنساء ، قال : وهذا السلطان هو الذى جدد أيضا بناء المدرسة التى بجوار جامع ابن يوسف اللمتونى، وليس هو الذى أنشأها كمايعتقده كثير من الناس بل الذى أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن المرينى رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة فى رحلته ، وشاع على الالسنة أن السلطان الغالب بالله توصل الى بنائها بصناعة الكيمياء ، وان الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السملالى علمه

اياها حين تلمذله كما سيأتى .

قال اليفرنى : « وهو كذب ، فان المنقول عن الشيخ المذكور انكارهـا وما كان ليفتح على مسلم بابا عظيما من أبواب الفتنة وسببا بليغا من أسبـاب المحنة ، لان هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن ، وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها لوجوه ثلاثة ؛ أولها : انها من المستحيلات كما ذكر ابن سيناء مستدلا عليه بقوله تعالى : « لا تبديل لخلق الله » وكما انه ليس في قدرة المخلوق أن يحول القرد انسانا والذئب غزالا كذلك ليس فى قدرته أن يصير الرصاص فضة ، والنحاس ذهبا يعنى ، لان ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال . ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها: «أتنكر ما تشاهده فى الصبغ وتصيير الجسد الاحمر أصفر والابيض أسود؟ فقال مانعها : « لاأنكر ذلك لان الصبغ ليس تغيير أصل ، وانما أنكر أن ثوب الصوف الابيض ترده صناع الصبغ قطنا أو حريرا أحمر أو أخضر ، وأما الصبغ فلا شك أن النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف . ثانيها : سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة فى الخارج كما ذهب اليه أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله اذ قال : «ثلاث متفق على وجودها فى الغالب ، وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغارب : الكيمياء ، والعنقاء ، والغول . وأخبارها كلها على وجـه السماع والاسنادات وحكايتها كالموضوعـات عن العجمـاوات والجمادات». ثالثها : سلمنا أنها موجودة فى الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها .

وقد سئل عنها الشيخ أبو اسحق التونسى رحمه الله فقيل له : «أحلال هى اذا كانت خالصة؟ » فقال: «لو دبر النحاس أو غيره من الاجساد حتى صار ذهبا خالصا لاشك فيه فمتى لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاسا أو جسدا مـن الاجساد فدبرته حتى صار ذهبا كما ترى لكان غاشا مدلسا. » قال :« ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس ، ويقول : فكما دبرته حتى صار ذهبا فكذلـك يدبره غيرك حتى يرجع الى أصله . فمن لم يبين فيها فهو داخل فى قوله عليه

الصلاة والسلام : « من غشنا فليس منا » فتكون صناعتها حراما » وقيل لبعض الفضلاء : « لم لم تعلل بهذه الصناعة فانها تسلى الخاطر ؟ » فقال : « قيل للحمار « لم لم تجتر ؟ » فقال : « أكره مضغ الباطل » وانشد :

فقلت لاصحابى هى الشمس ضوءها قريب ولكن فى تناولها بعد»

اه ما نقله اليفرنى ملخصا مهذبا ، وهو الحق الذى لا عوج فيه ولا أمت . ثم قال : وبالجملة فماشاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لاأصل له، ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة فى جامع الاشراف بعد ما بنى مدة ويقال : ان موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم .

فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها

تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم ، وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط ، ولما توفى مختطها الامير أبو الحسن على بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها. قال فى «المرآة» : ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب الى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن السلطان محمد الشيخ السعدى بجيوش عمه السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله ، وصاحب شفشاون يومئذ الامير الفاضل أبو عبد الله محمد بن الامير أبى الحسن على بن موسى بن راشد ، فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن اليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون فى مسلك وعر صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثانى من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة ، وساروا الى ترغة . فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور . واستقر الامير أبو عبد الله بالمدينة المنورة الى أن مات بها رحمه الله .

٤٢

حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة

قد قدمنا ما كان من بناء البرتقال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية ، وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز اليها السلطان الغالب بالله جيشا كثيفا ، واستنفر لها قبائل الحوز ، وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادى المخازن ، وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل ، واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن تودة العمرانى ، وجعل اليه أمر الحرب ، وابن السلطان صورة ، فزحف اليها وحاصرها أربعة وستين يوما وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها .

وفى «النزهة» : « ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التى قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل فى الغد بقيتها ولا يبقى للكفر بها أثرا فكتب اليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها ، فتراجع النصارى اليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها » اهـ.

وقد وقفت فى التاريخ البرتقالى الموضوع فى أخبار الجديدة، واسم مؤلفه لويز مارية ، على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها، وتتبع الوقائع فصلا فصلا ويوما يوما ، وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة ، فكان من جملة ماقال : «انه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ فى تجهيز الجيوش اليهم أتاهم بعض المتنصرة » قال : « وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم ، وكانوا عازمين على التوثق من هذا الجاسوس فافلت منهم فعلموا ان اظهاره للتنصر كان مكيدة ، ثم أخذوا فى الاستعداد واشتروا من عند قائد آزمور ألفى سيف هكذا زعم » قال : « وفى اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين الى حوز الجديدة» وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربى الذى قدمناه قال: «فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفا والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف

بالبلدروس وكانوا يومئذ جندا للسعديين ، وكان معهم عشرون مدفعا عشرة كبيرة ، وعشرة صغيرة ، وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميمونا ، وكان معهم العلم الكبير الابيض ورايات أخر ملونة ، وتقدموا الى الجديدة فحاصروها حصارا شديدا وحاربوها حربا هائلة ، وصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفا كاشفا . وكانت الجديدة يومئذ فى غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغى وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات ، وملكوا المتارزات التى كانت حول السور بعد أن هلكت عليها نفوس من الفريقين ، ثم صنع النصارى للمسلمين عندها مينا البارود مرتين ، ففى الاولى كانت المينا تسعة براميل نفط منهن سبعة فأهلكت خلقا من المسلمين والنصارى وفى الثانية كانت تسعة عشر برميلا أمام السور ففطت بالمسلمين وأتلفت منهم عددا فبعضهم طار فى الهواء وبعضهم ارتطم تحت التراب .

وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلا عظيما واعترف النصارى لهم بجودة الرمى بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكرى على السور اختطفته رصاصة فى أخير موضع من بدنه من الرأس أو الصدر . »

قال لويز المؤرخ: «ولقد قدم فى بعض الايام من أشونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم : أرونى كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم ، قال : فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره ، وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب الى منزله ، فعوضه منه المسلمون القبر » قال : « فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور الا فى النادر ، ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج الى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم وما مدة الاقامة » قال : « فخرجوا فى فلك لهم ليلا وساروا حتى بلغوا ساحل طيط ، وهى يومئذ خالية ، وكان بقربها محلة لقائد آسفى فلما طلع الفجر تقدموا الى البر وأرسوا فلكهم الى جانب بعض الاحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الاسفار اذا برجل

من محلة آسفى أتى على فرسه الى شاطىء البحر لبعض حاجاته فلم يرعه الا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه ، وجعل بعضهم فم مكحلته فى صدوه ، فلم يملك المسلم من نفسه شيئا، ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه الى الفلك أسيرا ، ولججوا به فى البحر ، ولما بعدوا عن البر شيئا ما رمى أحدهم الفرس برصاصة فقتله ، ثم أسرعوا الى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فاخبرهم بانهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فان لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك» . قال : «وكان ارتحال المسلمين من الجديدة فى سابع مايه العجمى من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيدا وأحدثوا فى كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك باشارة باباهم صاحب رومة » .

ومما حكاه هذا البرتقالى فيما كان يجرى بين أهل آزمور وبينهم من الحرب ، وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة : أنه كان بآزمور امرأة حسناء وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويز الا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودى(*) لان الحروف التى ذكر تقرب منه ، قال : فامتنعت عليه فراودها أياما واشتد كلفه بها فلم تزدد عليه الا تمنعا فبعث اليها ذات يوم يرغبها فى نفسه ، ويدلى عليها بمآثره التى من جملتها الشجاعة . حتى قال لها : «وان شئت أن آتيك برأس أعظم نصرانى بالجديدة وأشجعه فعلت» ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له : « ان أتيتنى به تزوجتك » فذهب الرجل المذكور الى قائد آزمور ولم يسمه لويز وعرض عليه أن يكتب الى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بان يعين من جانبه رجلا من شجعانهم ليبارزه ان شاء ، فاجابه

(*) الذى فى الترجمة الافرنسية مولاى حدو ولعل المترجم هنا رأى كلمتى مولاى ، وحدو متصلتين خطا فظنهما كلمة واحدة مستقلة وتوهم ان المؤرخ البرتقالى لم يحسن النطق بها وأن أصل الكلمة الحقيقى ميلودى والعذر له فى ذلك لان الحروف التى فى مجموع مولاى و حدو قريبة من لفظة ميلودى مع انهما كلمتان مستقلتان فى الحقيقة احداهما مولاى والثانية حدو هـ.

القائد الى مراده ، وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة، وهذا الموضع هو الذى كانت تقف فيه رسل آزمور اذا قدمت لغرض ، فخرج اليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به الى صاحبه ، فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم ما فيه فقام رجل منهم وقال: «أنا صاحبه» وهذا الرجل سماه لوزير ، وقال « كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتلىء الاعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور قبل ذلك فكتب صاحب الجديدة الى قائد آزمور انا قد أجبناك الى ما دعوت ، وقد أعجبنا ذلك ،وها نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التى تكون فيها الملاقاة ، فاتفقا على يوم معلوم ، وفى ذلك اليوم سار قائد آزمور فى أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور الى الجديدة ، فانتهوا الى الموضع الذى جرت العادة أن يقف فيه المسلمون ، وخرج قائد النصارى فى جماعته ، وشرطوا للمبارزة وكيفتها شروطا منها : أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقى الا المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين ، ومنها أن مساحة الموضع الذى يكون فيه مجالهما خمسون شبرا وسطا من الفريقين ، وان من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقا للآخر ، وأعطوا خطوطهم بذلك . ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا الى النصرانى ففتشاه لينظرا ماعليه من السلاح وما معه ، لان من جملة الشروط أن لا يتبارزا الا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصرانى سواهما » قال لويز : « وكان صاحبهم المذكور يحسن الضرب بكلتايديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل الا باليمين فرضى ، ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا الى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا غير أنه قد علق على ذراعه تمائم كثيرة مخروزة فى الجلد فقال له الشاهدان : « لابد أن تنزع هذه التمائم لان صاحبنا ليس عنده شىء من هذا ، وأيضا فيمكن أن تقيك هذه التمائم بعض الوقاية » فقال لهم: «لاأنزعها لان مثل هذا لا يتقى به فى الحرب، ولايغنى فى الظاهر من السيف والرمح شيئا وانما فيها أسماء الله ولا يحسن بى أن

أطرحها فى هذه الحالة التى أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب منى مع اسم الله تعالى وربما يكون سببا فى خذلانى » فرجع النصرانيان الى قائدهما وأخبراه بالقضية فقال: «لابد من نزعها» فعادا اليه» وزعم لويز أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدلان : « ان الحق مع النصارى لانا كشفنا صاحبهم كشفا تاما ، وراوده القائد أيضا ، فاصر على الامتناع معتذرا بما سلف ، ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون الى بلدهم ولم يكن براز » قال لويز : « وعد النصارى ذلك غلبا وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود » قال : « وكان سور الجديدة مكسوا بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين » .

قلت : من تأمل وأنصف علم أن الفشل انما هو من جانب النصارى لان تلك التمائم من حيث الظاهر لا تغنى شيئا ، وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى ، بل ولا يسلمونه ، فلم يبق الا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء . ثم قال لويز : « وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فأبلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة» اه ، « والحق ما شهدت به الاعداء » وانما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها ، ولما اشتملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الايمانية فنسأله سبحانه وتعالى أن يعلى منار الدين ويكبت كيد الجاحدين والمعتدين آمين .

وفى سنة سبعين وتسعمائة ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى قضاء فاس فطالت مدته .



وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبى العباس احمد بن موسى السملالى رضى عنه الله

حكى صاحب «الممتع» : « أن السلطان أبا محمد عبد الله الغالب بالله قال للاستاذ أبى عبد الله الترغى(*): «انى أجد فى نفسى ارادة وطلبا للشيخ فامض فاطلب لى شيخا» فذهب يطوف على مشايخ المغرب ، وكانوا اذ ذاك متوافرين ، حتى أتى على الشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الجزولى ، ثم السملالى ، فوجده شيخا جليلا سنيا متواضعا زاهدا ظاهر الورع ، حسن الاخلاق ، باهر الكرامات ، واضح الطريقة ، جامعا لمحاسن الخلال والاوصاف ، فرجع اليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه ، حتى أتى على الشيخ المذكور ، فقال : « وهو ولى ، ثم ولى ، ثم ولى ، ثم ولى » سبعا فقال له : «كأنك تدلنى عليه ، وانه مطلوبى ، وأنه المقدم على غيره» فقال له : «لا أدلك عليه ولا عندى ما أعرف به تقديمه ، غير أن هذا الذى ظهر لى» فازمع السلطان الغالب بالله الرحلة اليه ، فلما بلغ الشيخ المذكور مجيء السلطان اليه خرج يتلقاه ، وقد هيأ له النزل وما يصلحه ، وأعد له ما يناسبه من الاطعمة الرفيعة النفيسة ، وقدم اليه التمر الجيد واللبن الحليب ، ولما خرج للقائه أتاه بعضهم بفرس ، وكان من عادته أن لا يركب ، واذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه ، بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع ، ففعل ذلك . ولقى السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث فى ضيافته ثلاثة أيام ، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة الى الله تعالى ، وسأله مع ذلك تمهيد الملك ، واعتذر اليه بانه لا يمكنه العيش بدونه ، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض اذا هو تخلى عنه ، فقال الشيخ: « يا عرب ، يا بربر ، يا سهل ، يا جبل ، أطيعوا السلطان مولاى عبد الله ، ولا تختلفوا عليه » . ثم بعد الثلاث انصرف السلطان الى محله ، فبقى مدة وهو مسكن ممهد الملك فى عافية .

(*) الترغى بالتاء المثناة ثم الراء والغين نسبة الى ترغة مرسى قديمة على نحو اربعين كيلومترا من تطوان. انظر ترجمته فى « الممتع » صفحة ١٣٠

ثم أتى الترك الى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيرا ، ولم يهنأ له عيش ، فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم . فقال : « دعونى منكم حتى أستقى من رأس العين » ثم ابرد بريدا الى الشيخ . فلما انتهى اليه سمعه يقول : « ياترك ارجعوا الى بلادكم ، ويامولاى عبد الله هناك الله فى بلادك بالعافية » فتقدم الرسول وسلم على الشيخ ، وبلغه سلام السلطان ، ثم انقلب من فوره بعد ما ورخ وقت سماع مقالته . فلما بلغ الى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فاذا الخبر قد ورد على السلطان بان الترك قد ارتحلوا وانصرفوا الى بلادهم ، واذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة .

ثم ان الشيخ قدم مراكش فى بعض الايام زائرا من كان بها من أهل الله تعالى فرغب اليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه ، ويصنع لهما طعاما وشرط على نفسه أن لا يطعمهم الا الحلال ، ولا يطعمهم ما فيه شبهة ، وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه ، ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه ، فلما خرج قيل له : « ما لك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف ان لا يطعمكم الا الحلال ؟ » فقال له : « من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة » اه .

ومما ينخرط فى هذا السلك : أن السلطان المذكور كان له اعتقاد فى الشيخ أبى عمرو القسطلى ، وكان يعظمه غاية ، وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقى بها الحر تبركا بها ، ولما توفى الشيخ أبو عمرو المذكور ، وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، حضر السلطان المذكور جنازته وحثا التراب على قبره بيده .

ومن أخبار السلطان المذكور : أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسين المغارى كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فارسل اليه السلطان المذكور : « اما أن تخرج عنى أو أخرج عنك » فقال الشيخ ابن حسين : « بل أنا أخرج » وخرج من فوره الى تامصلوحت فكان من أمره ما كان .

استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب في ذلك

قد تقدم لنا فى أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة ، واستمروا بهما الى أن انتزعهما الترك من أيديهم . ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك فى الاستيلاء على المغرب الاقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور الهبطية وسد أنقابها دونه .

قال فى «النزهة» : ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لاينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة ، يعنى البوغاز ، وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس ، ويخليها لهم من المسلمين ، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلا اليه، فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها ، ونبشوا قبور الاموات وحرقوها ، وأهانوا المسلمين كل الاهانة ، ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد ، وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين، فلما كان بوادى اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم » اه .

وذكر اليفرنى انه وجد هذه الاخبار فى أوراق مجهولة والله تعالى أعلم .

فتنة الفقيه أبى عبد الله الاندلسى ومقتله

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الاندلسى ،نزيل مراكش ، متظاهـــرا بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيرا من العامة فتبعوه ، وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضى الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهرى ، ويتفوه بمقالات شنيعة فى الدين ، فأمر السلطان الغالب بالله بقتله : فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه ، ووقعت فتنة عظيمـــة بمراكش بسببه الى أن قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة . وكان ذلك أواسط ذى الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة (*).

ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم

قال فى «الدوحة» : « كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعد صيته وكثـــرت أتباعه فغلوا فى محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة ، قال : « وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له : ابن عبد الله فانـــه تزندق وذهب مذهب الاباضية على ما حكى عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الاهواء من الحواضر ، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية » قال : « ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة ، وسمعت بعض الفضلاء يقول:انه قد ظهر ذلك فى حياة الشيخ

(*) الصواب ان ذلك وقع سنة ٩٨٤ انظر « درة الحجال » فى ترجمة ابى عبد الله الاندلسى ص١٦٧ وفى « الدوحة » ص ٨١ : وكان قتله بامر من السلطان محمد المتوكل بن الغالب لا من الغالب كما عند المؤلف.

أبى العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال : « من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة ، والموت على غير ملة » .

قال صاحب «الدوحة» : «ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين ، وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ فى شىء، وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة فى أئمتهم ، وانما أصحاب الشيخ كأبى محمد الخياط ، والشيخ الشطيبى ، وأبى الحسن على بن عبد الله دفين تافلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين ، والا فالائمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة » اهـ .

وقال فى «المرآة» ما نصه : والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية ، وكان كثير التلقين ، فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبى: «أهنت الحكمة فى تلقينك الاسماء للعامة حتى النساء » فقال له : « قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فقنعنا منهم بان نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر» قال الشيخ الخروبى: «فوجدته أوسع منى دائرة » . .

قال صاحب «المرآة» : « وانتسبت اليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو برىء من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى مقتدى به فى العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه ، وقد أظهروا شيئا من ذلك فى حياته فتبرأ منهم ، وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم » قال: « وحدثنى شيخنا أبو عبدالله النيجى أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث اليالصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع فى نفسه من ذلك شىء فقيل له: «ان الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه » فقال : «أنا تائب الى الله ،كفى فى طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه» وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه الا فى دولة السلطان الغالب بالله كما مر ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش
وما وقى الله تعالى من شرها

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبى العباس الاعرج وأخيه أبى عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة ، فحدثتهم نفسهم الشيطانية بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه ، فحفروا فى خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملأوها من البارود ووضعوا فيها فتيلا تسرى فيه النار على مهل كى ينقلب الجامع باهله وقت الصلاة .فنفطت المينا وانهدت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور ، وانشق مناره شقا كبيرا ولازال مائلا به الى الآن،وكان ذلك مبلغ ضررهم،وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا . وكان ذلك سنة احدى وثمانين وتسعمائة .

وفاة السلطان أبى محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضى فى شرح «درة السلوك» : «توفى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه » اه . وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيقة ، أعاذنا الله منه ، وذكر غيره أنه توفى فى شوال بسبب تكلفه للصيام فعدت عليه العلة المذكورة . وشاع على ألسنة الناس أنه بات يصلى ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته ميتته وهو ساجد ، وذلك كذب ، ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الاشراف وقبره معروف . ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الابيات :

أيا زائرى هب لى الدعاء ترحما — فانى الى فضل الدعاء فقير
وقد كان أمر المؤمنين وملكهم — الى وصيتى فى البلاد شهير
فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة — ولم يغن عنى قائد ووزير
تزودت حسن الظن بالله راحمى — وزادى بحسن الظن فيه كثير
ومن كان مثلى عالما بحنانه — فهو بنيل العفو منه جدير
وقد جاء ان الله قال ترحما — الى ما يظن العبد بى سيصير

وحكى أن ابنه ابا عبد الله المعروف بالمسلوخ لما قرأ هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له: «ان فى قولك : ملقى بحفرة دسيسة وتلويحا الى الحديث: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» فهلا قلت ببلقع أو نحوه» .

***

بقية اخبار السلطان الغالب بالله وسيرته

كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بأحوال الملك وتأن فى الامور ، ولما ولى الخلافة ألان الجانب وخفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا ، وانتعش الناس حتى كان يقال: ثلاث عينات هم عيون الزمان: السلطان المولى عبد الله، والشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين المغارى ، والشيخ أبو السرور عياد السوسى .

قال اليفرنى : ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الاعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمسانى الى قاضى الجماعة أبى مهدى عيسى بن عبد الرحمن السكتانى يقول فيه : « ولا شك أن مولاى عبد الله مجمع على عدالته وبيعته » وقد أخبرنى الثقة من أصحاب الشيخ الجامع أبى العباس أحمد بن موسى السملالى أنه قال : « مولاى عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان » وقد اشتهر بين الانام وعلى ألسنة الخاص والعام أن السلطان الغالب بالله كان عدلا صالحا ووقع فى الرسالة التى كتب بها

ابن أخيه السلطان أبو المعالى زيدان بن منصور الى الفقيه أبى زكرياء يحيى ابن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحى ما ظاهره يخالف ذلك ، ويـؤذن بانه كان كغيره من الملوك ، ونص المحتاج اليه من تلك الرسالة مخاطبا للفقيه المذكور يقول : « وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى السمـــلالى كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغـرب على ولايته، وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه ، وكان المـولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه ، وما برح الشيخ المذكور يدعو لـــه ولدولته بالبقاء ويظهر حبه، وكان المولى المذكور يعزل ويولى ويقتل، وكان شرد منه الى زاويته المرابط الاندلسي وولد آصناك وأمثالهم ، وكان الشيخ يقـــدم الشفاعة فيشفع ولا يتعقب ، ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته . وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره ، ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سببا لفتح الفتنة ، وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء ، وعبد الكريم بن الشيخ ، وعبد الكريم بن مؤمـــن العلج ، والهبطى ، والزرهونى ، وعبد الصادق بن ملوك ، وغيرهم ممن لا يحضرنى ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا فى شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب ، وكان فى عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ، والشرقى ، وأبو عمرو القسطلى ، وأبومحمد ابن ابراهيم التامنارتى،والشيظمى، وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهـــــم ، فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة ، ولا سمع منهم ما يقدح فى ولاة الامر وقادة الاجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع اليهم فى تدبيره» اه القدر المحتاج اليه من الرسالة المذكورة .

قال اليفرنى : « ومثل هذا ما ذكر بعضهم : أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه ، ومثله ما ذكر عنه ايضا: أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك ، ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطـــة

وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا ، قال : « وهذه أمور شنيعة ان صح أنه فعلها ولست أدخل في عهدتها لاني انما رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظني انها من وضع بعض أعدائهم لحطه من قدرهم واخراجه اياهم من النسب الشريف ، ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة ، فلذا تجنبت منها كثيرا من الاخبار التي لاتظن بأولئك السادة رحمهم الله ، فقد قال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله في طبقاته : « ان المؤرخين على شفا جرف هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به » قال : « فعلى المؤرخ أن يتقي الله تعالى » . اه الا أن الملوك لا يستغرب في حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم ، ويستهونوا عظائم الامور لتطيعهم الرعية ساعة ، كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقي سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى ، والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الامة بمنه وفضله » . اه كلام اليفرني رحمه الله .

ومن وزراء السلطان الغالب بالله : ابن أخيه الامير الاجل الاديب الاحفل أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء وألطفهم مسلكا وأخفهم روحا . وله عارضة في النظم والنثر .

ذكر الاديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسي في كتابه: «الاعلام بمن مضى وغبر» من أهل القرن الحادي عشر» ما صورته: «قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدي من مراكش الى فاس ، ومعه الفقيه قاضي الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي ، والفقيه الامام أبو العباس أحمد المنجور ، فلما تبدت لهم معالم فاس الجديد ، « وتلظى للشوق في جوانحهم أوار » ، « وأبرح ما يكون الشوق يوما ، اذا دنت الديار من الديار » وأنشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالا :

أخلائي هذا المستقى وربوعه   وهذي نواعير البلاد تنوح
وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى   وتلك منازل الديار تلوح

فقال القاضي الحميدي ارتجالا :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد بهن غوان طرفهن جموح
يمسن كأملود من الروض يانع شذاهن من حول الديار يفوح

فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالا أيضا :

ويرفلن في الحلات يختلن في الحلى وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر لاقبال حب طال منه نزوح

ولما بلغت الابيات الى الاستاذ أبي العباس أحمد الزموري قال مذيلا :

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تحلت ربوع المستقى بجمالها وأنت الى تلك القباب تروح

وبعضهم جعل البيتين الاولين للمولى الاديب أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي ، وكان كاتبا للوزير المذكور ، ويجعل موضع أخلائي أمولاي ، والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم ، والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف ؛

ونظير هذا ماذكره الاديب المذكور في اعلامه المذكور . قال : كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الاسفار ، وأرسلت السماء بغيثها المدرار ، فقال الوزير المذكور :

لله أشكو غداة السفح اذ ركضت أيدي المطايا وحادي الريح يحدونا

فأجابه الكاتب المذكور :

والغيم في الافق قد أرخى ذوائبه بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الوزير :

حتى استوى الماء والآكام واستترت معالم الرشد لاخريت يهدينا
فظلت الخيل في الامواج سابحة سبح السلاحف نحو الدار يهوينا

فقال الكاتب :

والنفس في قلق لبين مألفها والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا حتى غدا الطير فوق السرح يفشينا

وأخبار هذا الوزير ونوادره كثيرة ، وهو الذى أخرج بنى راشد من مدينة شفشاون حسبما مر ، وكانت وفاته فى العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة .

ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضا : القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج الجنوى ، وعبد الرحمن بن تودة ، وقاسم الزرهونى ، وأحمد الهبطى . ومن ولاة مظالمه : أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسى ، وهو والى الشرطة وكان فقيها مشاركا .

وذكر بعضهم : أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالى كان فى بعض قدماته على السلطان الغالب بالله (*)قدانحشر الناس لزيارته بزاويته ، فوقف أبو عمران المذكور يذود الناس عنه ويقول : « رحمكم الله من زار خرج » فسمعه الشيخ فقال له : « لا تقل ذلك وقل : من جار خرج » ومن كتاب السلطان المذكور : محمد بن عبد الرحمن السجلماسى . ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما . ومن قضاته بمراكش : الفقيه قاضى الجماعة أبو القاسم بن على الشاطبى ، وبفاس أبو عبد الله العوفى ، وأبو مالك عبد الواحد الحميدى رحمهم الله .

الخبر عن دولة السلطان أبى عبد الله محمد المتوكل على الله
ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله

لما توفى السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس ، وكان ولى عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش ، واستأنفوا له البيعة،

(*) الذى فى « الفوائد ان الموفود عليه هو السلطان محمد الشيخ بتارودانت والذى كان يذود الناس هو صاحب شرطته الامير ابو زكرياء ابن الغازى انظر ذلك فى النصيحة التى وجهها المؤلف ابو زيد التامرتى لابى حسون المعروف بابى دميعة لما قام بالسوس اه.

وكتبوا بها اليه ، فوصلت اليه وهو بفاس أوائل شوال سنة احدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره .

قال ابن القاضى : أمه : أم ولد ، وكنيته : أبو عبد الله ، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة : بالمسلوخ لانه سلخ جلده وحشى تبنا كما سيأتى .

وكان مما وقع فى أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبى غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء ، وذلك يوم الاربعاء منتصف جمادى الاولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وفى هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدى عيسى بن الحسن المصباحى دفين الدعادع على وادى مضى من عمل القصر ، فانه حمل بعد استشهاده الى الموضع المذكور فدفن بازاء قبر أبيه فى الروضة التى هنالك .

واستمر أمر أبى عبد الله المتوكل منتظما الى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة ، فقدم عليه عمه عبد الملك بن الشيخ بجيش الترك فنثر سلكه وبدد ملكه على ما نذكره . ويقال : انه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبدالملك ففرا منه الى ناحية الترك على ما سيأتى . قالوا : وكان السلطان المذكور فقيها أديبامشاركا مجيدا قوى العارضة فى النظم والنثر ، وكان مع ذلك متكبرا تياها غير مبال بأحد ، ولا متوقفا فى الدماء عسوفا على الرعية ، ومن شعره قوله :

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... فى وجهها عسجدفى وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا ... فان تأخير أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضا قوله :

ساروا فسار فؤادى اثر ظعنهم ... وخلفونى نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل وردا وريحانا

وكان خليفته بمراكش : القائد ابن شقراء ، وحاجبه : أحمد بن حمو الدرعى ، وكتابه : يونس بن سليمان الشاملى ، وعلى بن أبى بكر ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

الخبر عن دولة السلطان أبى مروان عبد الملك المعتصم بالله
ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله

كان أبو مروان عبد الملك بن أبى عبد الله الشيخ السعدى ، وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد : بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما ، فلما توفى وولى الامر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد الى تلمسان خوفا على أنفسهما منه ، فاقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة ، ولحق بهما أخوهما عبد المومن فصار ثالثة الاثافي، ثم انتقلوا بعد ذلك الى الجزائر ، ومنها ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية متطارحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثمانى رحمه الله ، فامده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتى .

ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع الى بقية أخبار السلطان أبى مروان المعتصم بالله لانها تنبنى على ذلك فنقول : اعلم أن أمر بنى أبى حفص أصحاب تونس كان قد مرج فى هذه المدة وتداعى الى الاختلال ، وكان خير الدين باشا التركى المقدم ذكره فى أخبار تلمسان قد استولى على تونس فى حدود الاربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن ابن محمد الحفصى ، ففر الحسن المذكور الى طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها الى تونس ، فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادى ، وتقدموا الى تونس فملكوها ، وانهزم خير الدين الى الجزائر ، وشارك النصارى الحسن بن محمد فى امرة تونس ، واستباحوا أهلها قتلا وأسرا ونهبا ، يقال : انهم قتلوا من أهل تونس الثلث ، وأسروا الثلث ، وأبقوا الثلث ، وكل ثلث ستون ألفا هكذا عند صاحب « الخلاصة النقية » . ثم ملكوا الموضع المسمى : بحلق الوادى وليس هناك واد عذب وانما هو جون دخل من البحر فى البر وعليه مرسى تونس ، ثم بنى النصارى فى الحلق المذكور حصنا عاديا أقاموا فى بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة ، بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد .

ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو : حميدة . وملك الحضرة مدة وقاتل

نصارى حلق الوادى فامتنعوا عليه ، ثم عزاه على باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها ، فذهب أحمد الى طاغية قشتالة مستغيثا به شأن أبيه من قبله ، هذا كله ونصارى الحلق لازالوا متمكنين منه أى تمكن ، فأمد الطاغية أحمد المذكور باسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه .

ولما وصل الاسطول الى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة فى الحكم ، فأنكر أحمد ذلك وأنف منه ، وذهب الى صقلية فبقى بها الى أن مات وحمل الى تونس . وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضى بالمقاسمة ودخل بالنصارى الى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصرانى بها ، وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع ، وارتبطت خيل العدا بالجامع الاعظم والقيت مافيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبى محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه الا الرمل حماية من الله له ، وحاشا أن تعدو الارض على جسد مثله ، وأرسل محمد بن الحسن الى الناس بالامان واستمالهم النصرانى بعدبكاذب الرفق ، فأقاموا بدار مذلة وهوان .

واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثمانى فأعظمه ، وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال : كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية ، وهى اصطنبول ، غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، ووصلوا الى حلق الوادى فى الرابع والعشرين منه ، وكان حيدر باشا صاحب القيروان ، ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم ، فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصو صبوا عليه ، وتقدموا الى الحصن الذى بحلق الوادى فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الاولى من السنة المذكورة ، أعنى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، واستلحموا من به وغنموا ما فيه ، والتجأ محمد بن الحسن الحفصى وأنصاره من النصارى الى البستيون ، وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس ، فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه عنوة . وقتلوا من به ، وامتلأت

أيديهم من المغانم ، وطهر الله بهم البلاد ، وكانت احدى الوقائع الجليلة القدر ، الباقية الذكر ، وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه الى السلطان سليم فاعتقله في يد قائد أحد حصونه حتى هلك ، وانقرضت بمهلكه دولة بنى أبى حفص التى هى بقية الموحدين .

اذا علمت هذا ، فاعلم ان استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر ، لان وفاته كانت فى آخر رمضان سنة احدى وثمانين وتسعمائة كما مر ، وفتح تونس كان فى جمادى الاولى من السنة المذكورة . ووقع فى «النزهة» : أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وهو غير صواب ، والله تعالى أعلم .

مجىء السلطان أبى مروان عبد الملك بن الشيخ السعدى بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

اعلم انه وقع فى «النزهة» وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا فى ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفى أبوهما وولى أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فاقاما بها مدة ثم انتقلا الى الجزائر ، فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر الى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثمانى فى أن يمده بجيش لبملك المغرب ، فتثاقل عنه العثمانى الى أن بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح ، وعاد اليه بالبشارة فاسعفه ، وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدما على وفاة الغالب بالله كما مر ، اللهم الا اذا كان عبد الملك وفد على العثمانى مستعديا على أخيه الغالب بالله ، وفى أثناء ذلك توفى وولى ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحا ، وأما ما فى «النزهة» مما يقتضى تأخر فتح تونس عن وفاة الغالب بالله فغير صواب كما مر .

ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول : لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد

المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر ، فركبا البحر الى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثمانى رحمه الله ، ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية ، وزعم بعضهم أن التى كانت معهما مسعودة الوزكيتية ، وهى أم أحمد منهما ، فانتهيا الى القسطنطينية وتعلقا بكبراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم ، ودخلت أمهما داره ، وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب ، ويقوموا فيه بدعوته ، فتثاقل عنهم مدة الى أن كان الغزوالى تونس فكتب السلطان سليم الىأهل الجزائر وأهل طرابلس أنيوجهوا قراصينهم لحصارتونس مع العمارة الموجهة من قبله ، فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتى ، وهو صاحب الجزائر ، أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه ، فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلا فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم فى جملةمراكب الجزائر . هكذا وقع فى سياقة هذا الخبر ، وهو يقتضى أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية ، فلعلهما عادا اليها من عند السلطان سليم الى أن سافرا فى جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم ، ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح الى السلطان سليم ، فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما فى الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهما التى تركاها هنالك ، فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما . فكان من قدر الله تعالى ان هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم ، ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا للمركبين أثرا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا الى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث .

واتصل خبرهما بالصدر الاعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس ، وقصا عليه الحديث من البدء الى التمام ، فأعلم السلطان سليما بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه ، وسألهما عن كتاب الفتح فقالا : ان امير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما الى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك».

ولما رأيا من السلطان سليم تنزلا واهتزازا لكلامهما طلبا منه فى بشارتهما أن يبعث معهم العساكر الى الغرب، وشفعا فى انزال رأس والدهما ودفنه فقبل شفاعتهما ، ثم أمر بهما الى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما ، وبعث اليهما بالام التى كانت هنالك وأرجأ أمرهما الى قدوم الخبر اليقين ، وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح ، وظهر صدق عبد الملك وأحمد ، فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالا وسلاحا وزادا وكتب لهما فرمانا للدولاتى صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الاقصى .

ولما قدما على الدولاتى بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا علينا الرجال وعليهما المال ، وهذه عادتنا مع السلطان، ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الاغا والوكيل وأهديا اليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه فى وجهتهما تلك الى أن يبعثابه اليهم من المغرب ، فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج اليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه الى أن يرجع، وأشهدوا عليهما بذلك فى دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به ، ثم نهض عبد الملك وأخوه إلى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما ، وكتب عبد الملك الى شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم الى أن كان من أمره ما كان .

وساق اليفرنى هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال : « لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه الى السلطان العثمانى فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فاعطتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها فى بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها الى المغرب ، فأعطاها ذلك، فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان الى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آبائه فطالبه أهل الجزائر بالراتب ، فقال لهم :أسلفونى وعلى القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة ، وكان عددجيش الترك أربعة آلاف » .

وقال فى شرح «الدرة» : «ان عبد الملك طلب من رئيس الترك أن يعينه بحصة منهم توصله الى تخم بلاده ليدخلها اذ الجند كله جند أبيه لا يمكن

أن يقاتلوه ويضربوا في وجهه لتعظيمهم اياه فاسعفه على مراده ، وأرسل معه عصابة وحصة قليلة ، فأقبل بهم حتى انتهى الى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس ، فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه ، ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الاندلس سعيد الرغالى الى عبد الملك ، وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده ويعد طائعهم ويوعد عاصيهم ، فلما سمع المتوكل بما فعله جند الاندلس فت ذلك فى عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنا منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالى ، فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه واقامة ملك عمه ، ويقال: ان بعض الجند لما سمع بان القائدجرمونوأولاد عمراننزعوا الىعبدالملك أيضا جاء الى المتوكل وقال له : « ان القائد ابن شقراء قد غدر وفر الى عبد الملك » وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه ، فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزما ، وانتهبت خزائنه ، وأوقد فيها النار ، ونفط ما كان بها من البارود حتى رىء من رؤوس الجبال .

ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فاخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه الى مراكش لا يلوى على شيء فلحق بـــه القائد ابن شقراء بوادى النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له فى القول ولامه على عدم التأنى والتثبت ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

استيلاء السلطان ابي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل الى مراكش تقدم عمه أبو مروان الى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الاحد سابع ذى الحجة سنة ثلاثوثمانين وتسعمائة من باب الفتوح ، وبعد أن دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياما ثم طمحت نفسه الى اتباع ابن أخيه الى مراكش ، ولما عزم على النهوض اليه طالبه الترك بان

يردهم الى بلادهم وأن يعطيهم المال الذى اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم : البقشيش فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقيــة ، واستسلــف المــال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله ، فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الانفاض ، منها النفض الكبير الذى له عشرة أفواه، وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم ، وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ، ثم رجع الى فاس .

وفى هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبى مالك عبد الواحد بن أحمــد الحميدى لامر نقمه عليه وأودعه السجن ، فبعث الفقيه المذكور أولاده الى الشيخ الصالح أبى النعيم رضوان بن عبد الله الجنوى يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله ، فكتب اليه الشيخ أبو النعيم يحضه على الاستشفــاع بالنبى صلى الله عليه وسلم والاستمساك بحبله لانه باب الله الاعظم فقبل القاضى اشارته ، وتوجه الى ربه بكليته ، فاتاه الفرج من حينه ، رحم الله الجميع بمنه.

نهوض السلطان ابى مروان الى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن اخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك

ثم ان السلطان أبا مروان نهض من فاس فى جنده الذى أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف اليه من جند ابن أخيه وتقدم الى البلاد المراكشية قاصدا حربه وتشريده عنها ، ولما سمع ابن أخيه بخروجه اليه وقصده اياه تهيأ لملاقاته وسار الى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادى شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضا على المتوكل ، وفر برأس طمرة ولجام ، وأجفل كعادته اجفال النعام ، وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبى مروان يومئذ ، فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه الى مراكش فر عنها الى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبا عن اخيه ، وأخذ لــه البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع

عشر ربيع الثانى سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أياما ، ثم خرج فى طلب ابن اخيه فعميت عليه انباؤه وسقط بين سمع الارض وبصرها ، فعاد أبو مروان الى مراكش فاقام بها الى أن كان من أمره ما نذكره .

استخلاف السلطان ابى مروان لاخيه ابى العباس احمد على فاس و اعمالها

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم اليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها ، فأجابه الى ذلك وولاه عليها ظنا منه أن أمر المغرب قد صفا له ، وان المتوكل لا يعود اليه ، وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى حاضرا للطلبة والعطية ، فانكر ذلك ولم يره صوابا ، وقال : « لاينبغى لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما ، فغاظ ذلك أحمد وظن انه من سوء رأى عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه ، فأعرض عن مقالة الوزير المذكور ، وذهب الى فاس خليفة عليها ، وبقى السلطان أبو مروان بمراكش .

وفى هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لاخيه أحمد برسالة يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من عبد الله المعتصم بالله ، المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيده الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من املائه أيده الله ونصره ، الى أخينا الاعز الاحظى بابا أحمد حفظه الله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فاعلم أنى لا أحب أحدا بعد نفسى كمحبتى لك ، ورغبتى فى انتقال هذا الامر بعدى اليك لا لغيرك ، غير أنى أعتاد منك التراخى فى الامور حتى انك لا تبالى بعظيم الامر ولا تعتبره ، الى أن يتطرق الى ما لا يتلافى جبره ، من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهد أركانه ، ويبلغ العدو معها مناه

ومراده، من ذلك التراخي اهمالك أمر الجند الذي بالعرائش ، واغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المئونةوالبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك ، وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة ، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث اليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذرا في هذه المسألة التي لا تحتاج الى الاهمال ، ولا بد ولا بد ، فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب آصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى ، وتمنيت أن لوحركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ، ويرجع ساعة رؤيته الى عادته من الذل والفرار ، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة ، فان الساعة لا تقتضي الا الحزم ، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم ، والسلام » اه .

ظهور ابي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه الى مراكش واستيلاؤه عليها

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره عن مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحيائها الى أن اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتأشب عليهمايشبه انيكون جيشا فاستهوتهم منه الاضاليل وقادهم قود الملك الضليلوجاء بهمالىمراكش . فسمع بهالسلطان ابومروان فخرجللقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقا غير طريقه، وفجا غير فجه ، وقصد مراكش فدخلها* باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الا أنه لم يتمكن من القصبة، لانالسلطان

(*) سنة ٨٤ وفي هذه السنة كانت فتنة أبي عبد الله الاندلسي ومقتله كما ذكره المؤلف فيما سبق . انظر الدوحة صفحة ٨١ .

أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم فى نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه الى أن وافى الحضرة ، فحاصره بها وكتب الى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها ، فأتاه به أحمد مسرعا .

ولما انتهى الى مراكش اجتمع بالوزير أبى فارس الوزكيتى فقال له : « أوقفت على الرأى ؟ أول الفكرة آخر العمل ! » فبانت لاحمد نصيحته وزال ما كان يختلج بصدره عليه .

ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم المتوكل شيعته من أهل مراكش وفر الى السوس فبقى أهل مراكش متمادين على الحصار الى أن اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فادخلوه من بعض الاسوار والانقاب ، ولما فر المتوكل الى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور ، منها : وقعة تينزرت التى أنشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن على بن منصور الشيظمى البيتين اللذين قالهما فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما :

هو الغيث والبحر الغطمطم فى الندى ... وليث اذا جد الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه ... ويقصر عنه فى الثبات ثبير

فأجابه أحمد المنصور ببيتى أبى فراس الحمدانى وهما :

ونحن أناس لا توسط عندنا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومنها الوقعة التى بعدها باساطين المنصور وهو فى نحو ثلاثة آلاف ، والمتوكل فى نحو ستين الفا ومع ذلك هزمه المنصور

قلت : كان أحمد المنصور هذا مجدودا ، محظوظا مسعودا ، بحيث أربت سعادته على شجاعته ، وما كان أخوه عبد الملك يسرى الا فى ضوء طلعته ويمن نقيبته ، فلذا كان يقدمه فى الحروب ويستكفى به فى نوازل الخطوب ، ومن سعادته ما اتفق له فى ذهابه الى العثمانى بخبر الفتح وتقدمه قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببا فى استيلائهما على المغرب ،

وستسمع فى أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال ان شاء الله . وأما أمر المتوكل فانه بعد توالي الهزائم عليه فر الى جبل درن وتوغل فى قننه ثم فر منه الى باديس فاقام بها مدة ثم ذهب الى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخا بعظيم البرتقال ، والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال .

الغزوة الكبرى بوادى المخارن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدى لما دخل طنجة قصد طاغية البرتقال ، واسمه سبستيان ، بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء ، وهو طاغيتهم الاعظم ، وليس قائد الجيش فقط على ماهو المحقق فى تواريخهم ، وتطارح عليه وشكا اليه ما ناله من عمه أبى مروان المعتصم بالله وطلب منه الاعانة عليه كي يسترجع ملكه. وينتزع منه حقه ، فاشكاه الطاغية ولبى دعوته وصادف منه شرها الى تملك سواحل المغرب وأمصاره ، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه ، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج الى بلاد الاسلام .

ومن المتواتر فى تواريخ الافرنج : ان كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتقال وتوريطها فى بلاد المغرب وقبائله ، فصم عن سماع قولهم ولج فى رأيه ، وملك الطمع قلبه ، وأبى الا الخروج فاسعفوه وخرج من طنجة فى جيش ، قال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور » : « عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفا » ، وقال أبو عبد الله محمد العربى الفاسى فى مرآة «المحاسن» يقال : ان مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا وأقل ما قيل فى عددهم ثمانون ألف مقاتل . وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه ، قال بعضهم : وكان عدد الانفاض التى يجرونها مائتين،

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين ، وادارة رحى الهوان على الدين ، فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعبا وقلوبهم كربا ، وبلغت القلوب الحناجر ، واتقدت بها نيران الهواجر ، وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال الى بلاد الاسلام رسالة بعث بها الى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوى رأيه يغمض عليهم بها فى نكث بيعته ونقضها ، ومبايعة عمه من غير موجب شرعى ، وقال لهم : « ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين » وقد قال العلماء : انه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه » . وتهددهم فيها وأبرق وأرعد . وقال : « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وسمى النصارى : أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى ، فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله ، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا : «الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وارساله ، والرضى عن آله وأصحابه ، الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به ، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله .

وبعد ، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدى عن كتابه الذى استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة ، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب ، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب ، فقولك : خلعنا بيعتك التى التزمناها ، وطوقناها أعناقنا وعقدناها ، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع ، وانما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه ، وعلى سبيل الحق وتحقيقه ، وسنشرح لك ذلك ونبينه ، ونسطره لك بالادلة الشرعية التى ترقيه وتزينه ، نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة ، وترك لك من الاموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لاحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم ، فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك فى

، حق جهاده ، حتى استخلصوا من أيدى الكفار رقاب عباد الله وحصون
ده ، وأسسوا لدين الله قواعد وأركانا ، وملكوا من المغرب بلادا معتبرة
وطانا ، فلما وصل ذلك اليك ألقت اليك العباد أعنتها ، وملكتك أزمتها ،
مبدلين ولا مغيرين ، ولا باغين ولا منكرين ، الى أن قام عليك عمك بحجته
لا يمكنك جحدها ، حسبما ثبت كما يجب عقدها ، فخرجت مبادرا له
معها ، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها ، وحامل راية عهدها ، وعمك فى فئة
يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك ، أو يدافع ما تحت لواء من
يتك وبنودك ، فما هوالا أن جرى القتال ، وحضر النزال ، رجعت على عقبك
با هروب مطرود بقصاص ، وجنودك تناديك ولات حين مناص ، فتركت
دك ومحلتك بكل ما فيها ، وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها ، وهربت عن
ينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك : لمن تركتنا والى من تكلنا ؟ فلم تلتفت
م وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الاموال والعدد الوافرة والرجال
لاسوار المرتفعة للمانعة ، والمدينة المشهورة الجامعة ، فأصبح أهلها واليد
دية من المفسدين تريد أن تمتد الى الحريم والاولاد ، والطارف والتلاد ،
دافع عن الضعفاء والمساكين الاالله تعالى الذى قال فى مثلهم: «ومن أصدق من
قيلا »،« لايستطيعون حيلةولا يهتدون سبيلا»،فما أمكنهم بعدهروبك عنهم
سلامك لهم فوضى مهملين الا النظر فى أمرهم ، واعمال الفكر فى التدبير على
سهم ، فبينما هم على ذلك اذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته ،
كا فى ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته ، حسبما تقرر ذلك عندكم
لهر ، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر ، اذ كان مولانا محمد الجد الاكبر
د لاولاده مولانا أحمد ، ومولانا محمد الشيخ واخوانهم ، لايتولى الخلافة
م ولا من أولادهم الا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك الى أن كبر أولادهم
لب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع ، فقاتله على ذلك حتى تم له الامر
نتظم ، فعهد لوالدك الذى كان أكبر أولاده، فلم ينازعه أحد فى ذلك الى أن
ى والدك رحمه الله ذلك ، وعهد اليك فلم ينازعكم أحد ، فأبى الله الا
حق فاعطى ملكه لعمك الذى هو أكبركم بعد أبيك ، فان سلمت هذا فأى

حجة تدلى بها وأى طريق تعتمد عليها؟ وان أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد ، اذ لا حجة حينئذ لجدك فى القيام على عمك ، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له ، فلم يبق الا التغلب الذى تدلى به فى مسئلة عمك وفى قيامه عليك ، فان كنت تريدأن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين فى السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك ، اذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا ، فلم يبق بينكم الا : « والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا » فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله ،وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك اذ هو أكبركم فى هذا التاريخ .

فان قلت : ان ما عقده الجد غير صحيح ، قلنا : فقد ذكر الامام الماوردى رحمه الله ورضى عنه فى كتاب الاحكام السلطانية له فى باب عقد الخلافة· أن عبد الملك بن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه أحد فى ذلك .

فان قلت : فعل عبد الملك ليس بحجة ، قلنا : سكوت العلماء على ذلك وهم ماهم فى زمانه هو الحجة، اذ لايمكن أن يسكتوا على باطل، واقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذى هو حجة الله فى أرضه، وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة» قال القاضى: أبو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب «اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم » : «يعنى لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذى تقلده من أمرهم » وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : « مامن أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها ليوجد منمسيرةخمسمائة عام» . وفى «الاكمال» نفسه قال القاضى : « والذى عليه الناس أن القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلهم أن يتفقوا على امام يبايعونه ، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود » . فلما أسلمتهم وأضحوا

بغير امام وعمك يدلى بحجته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبــى صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ، وأيسوا من رجوعك اليهم ، وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الا على وجه المكابرة ، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية .

فان قلت :كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك قلنا : انما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعى لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها ايه . ثم وصلت الى مراكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادى والامصار ، وتشد اليها الرحال من سائــر الاقطار ، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور ، وأنواع الفرح والحبور ، فوجدت خزائنها تندرج ملئا من كل شيء، فأما أسوارها ورحابها فهى كما قيل : تربة الولى ، ومدرج الحلى ، وحضرة الملك الاولى ، والبرج النيرالجلى ، فحللتها وتمكنت من اموالها وخزائنها ، ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا ، ولا خرجوا عليك فى سلطانك ولا أنكروا ، فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنودا لايجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافظ ، فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول ، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول ، فما كان من حديثك الا أن وقع القتال وحضر النزال،بادرت هاربا محكما للعادة،تاركا للرؤساء من أجنادك والقادة ، فحلت بهم الخطوب والرزايا ، واختطفتهم أيدى المنايا ، فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ، ثم أسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ، ولا قال لك أحد لست ببعلهــا فعملوا على القتال معك والتمنع باسوارها الحصينة ، والحصار داخل المدينة ، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخوالك وعماتك ونساءك ، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها ، ومن داهية ما أعضلها . ولولا فضل الله ولطفــه

ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت اليهم أيدى السفلة من الفسقة فاى حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأى كلام لك بين الرجال يا هذا ؟ ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها فى لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج ، واطمأنوا وسكنوا ، ثم هربت للجبل عند صاحبه (*) فصرتما فى نهب أموال الرعية وسفك دمائهم ، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن ، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين فى الامن والامان فانت وهم فى استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل .

ان هو مستوليا على أحد　　　الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة » ثم خربت العامر ، وأفسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الاقصى ذلك أيقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت ، كما قيل ، : « فى خلف كجلد الاجرب » .

فان قلت : ان أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه ، قلنا : لم يطعن فى خلافة أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه من تخلف عنها من اهل الشام ، وفيهم من قد علمت من الناس ، والاجماع على صحة بيعته: وسمى من تخلف عنها: باغيا لقول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار : «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية رضى الله عنه ، والحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ، ولا يعد خلاف من خالفه خلافا وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين ، والاخذ

(*) المقصود به هو الشيخ ابو عبد الله بن محمد واسعدون الذى التجأ اليه المتوكل بعد فراره انظر «الدوحة» صفحة ٨٤ « وطبقات الحضيكى » فى حرف الميم « والممتع » «والصفوة» وقد ذكرت ترجمته فى هذا المؤلف الاخير استطرادا فى ترجمة تلميذه سيدى احمد المعروف بالشيخ وكانت وفاة ابن واسعدون هذا عام ٩٨٧ بعد غزوة وادى المخازن بسنة.

فى التخليط العظيم على المسلمين ، فانك اتفقت معهم على دخول آصيلا ، وأعطيتهم بلاد الاسلام ، فيالله ويالرسوله لهذه المصيبة التى أحدثتها ، وعلى المسلمين فتقتها ، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » .قال أبو حيـــان رحمه الله : أى لا تنصروهمولاتستنصروا بهم وفى كتاب القضاء من نوازلالامام البرزلى رحمهالله: أن أمير المسلمين يوسفبن تاشفيناللمتونى رحمه الله استفتىعلماء زمانهرضى الله عنهم ،وهم ماهم ، فىاستنصار ابن عباد الاندلسى بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم رضى الله عنهم بردته وكفره ، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد فى عقدها ابتداء ، وانه متى طرأ الكفر وجب العزل ، وناهيك بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالسمع والطاعة » وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصـــر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلى فى وجوب خلعك ، وسقوط بيعتك ، فلم يبق لك الا منازعة الحق سبحانه فى حكمه ، « ومن يشاقق الله ورسولهفان الله شديد العقاب » .

وأما قولك : فى النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذى لا يخفى . وقولك : رجعت اليهم حيـــن عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جـــل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وان الحقلم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثانى : انك استعنت بالكفار على المسلمين. وفى الحديث : أن رجلا مـــن المشركيـــن ممن عـــرف بالنجـــدة والشجاعة جـــاء الى النبـــى صـــلى الله عليـــه وسلـــم . فوجده بحرة الوبرة « موضع على نحو اربعة اميال من المدينة » فقال لـــه : « يامحمد ، جئت لانصرك » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ان كنتتؤمن بالله ورسوله» فقال: « لا أفعل » فقال له عليه الصلاة والسلام : « انـــى لا

أستعين بمشرك » وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم فى الاستعانة بهم انما هو على المشركين بان نجعلهم خدمة لا زبال الدواب لا مقاتلة ، فأمـــا الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديما :«لسان العاقل من وراء قلبه »وفى قولك:يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وفى ذلك مصادمـة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله

وقولك : فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، إيه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت ففى الحديث : « يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به فى النار سبعين خريفا

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان . وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: « لا دين الا دين محمد صلى الله عليه وسلم» ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء» ، ومن قائل يقول : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » ومن قائل يقول : « انما قصد التشفى بالمسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعـــال القبيحة » الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا . ورضى عنهم وبارك فيهم ، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان ، فلو لم يكن منهم الا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا فى صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب فى الله والبغض فى الله من قواعد الايمان .

وقولك أيضا : متبرئا من حول الله وقوته ، فان لم تفعلوا فالسيف. فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط . أنبا سيفك هذا وأنت مع المسلمين فى أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ، ثم زال نبوه الان بالكفـــار فهذه أضحوكة فتأملها .

وأما ما نسبته لامام دار الهجرة فكفاك عجزا ان لم تعين لنا نصا جليـا

نعتمد عليه فيما تحتج به الا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكرهلامعربا بنصه .

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر، فهو مما نص عليه المالكية فى مختصراتهم التى ألفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك الى الحنفية اما قصور ، واما الغاء لمذهب مالك رضى الله عنه ، وهو النجم الثاقب .

وأما قولك : أنتم أهل بغى وعناد فلا نسلم لك ذلك الا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا . فأما اذ هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا ، على انك فى كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضى الله عنهم: «من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير» وذلك معزولزعيم العلماء القاضى أبى الوليد ابن رشد ، والقاضى أبى الفضل عياض ، وكيف لاتنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، وكيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شىء مما قصدوه ، أو بلغوا شيئا مما أملوه؟ على أن أكثر العلماء حكموابردتهم ففاتتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله .

وقد افتخرت فى كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكمالاسلام دينا» «ويأبى اللهالا ان يتمنورهولو كره الكافرون »وفى الحديث عنالنبى صلى الله عليه وسلم : «لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيقاتل آخر هذه الامة الدجال » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنين ومنعنى واحدة ، سألته الا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . والكل عليك واياك نعنى .

وما ذكرته عن عمك : فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله فى وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من

حملة القرآن مائة ختمة، وصحيح البخارى، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك ، وبلغه كتابك الذى كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها ، والافتخار بكثرتها لما قورنا لكم أمرها، اذ لا اعتماد له أيده الله عليها ، وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك ، وقد قاتلك وأنت فى وسط المسلمين فى بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية ، فأى نحس وشؤم حلا بديار الروم، فان جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع الى الله أيها المسكين ، وتب اليه فانه يقبل التوبة عن عباده فى كل وقت وحين ، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة ان قبلتها، وموعظة ان وفقت اليها، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام » انتهت الرسالة .

وكان خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتقال وفصوله به من طنجة فى ربيع الثانى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، قال فى «المرآة» : « انهم لما خرجوا الى بلاد الاسلام ضربوا محلاتهم بالفحص ، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر ، وكانت آصيلا قد تصيرت اليهم قبل ذلك بأشهر ، يعنى بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم ، فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التى لا طاقة لهم بها ، وفشا النفاق لاجل السلطان محمد بن عبد الله الذى معهم ولاجل بعد صريخ المسلمين ، فان السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان اذ ذاك بمراكش ، فاستبطأوا وصول الخبر اليه ، ثم مجيئه بعد ذلك ، فلم يبق لهم تدبير الا الفرار ، والتحصن بالجبال وغيرها ، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى رحمه الله ، وكان اذ ذاك بالقصر ، لرجل من أصحابه: «نادفى الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فان عظيم النصارى

مسجون حيث هو ، حتى يجيء السلطان من مراكش ، وان النصارى غنيمة للمسلمين، ومن شاء فليعط خمسين اوقية فى النصرانى، يشير الى مبلغ قيمة النصرانى فى الغنيمة ، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك اكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضا » اه .

وقال فى «النزهة» : « ان النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل ، فأعلم أهلها السلطان أبا مروان ، وكان بمراكش ، وشكوا اليه كلب العدو عليهم، فكتب السلطان أبو مروان من مراكش الى الطاغية : « ان سطوتك قد ظهرت فى خروجك من أرضك ، وجوازك العدوة فان ثبت الى أن نقدم عليك فأنت نصرانى حقيقى شجاع . والا فأنت كلب ابن كلب » فلما بلغه الكتاب غضب ، واستشار اصحابه هل نقيم حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا، فقال له محمد بن عبد الله : « الرأى أن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر » فأعجب ذلك الرأى أهل الديوان ولم يعجب الطاغية . وكتب السلطان ابو مروان لاخيه أبى العباس أحمد ، وكان نائبه على فاس وأعمالها ، أن يخرج بجيوش فاس واحوازها ويتهيأ للقتال،ثم كتب اليه ايضا فى شأن مئونة الجيش كتابا يقول فيه : « من عبد الله المعتصم بالله المجاهد فى سبيل الله أمير المؤمنين أبى مروان عبد الملك بن امير المؤمنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أمره وأعز نصره الى أخينا الاعز الانجب بابا أحمد بن مولانا الوالد حرس الله كريم اخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد فانا كتبناه اليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله الا الخير والعافية والنعم الضافية ، هذا وانه ساعة وصوله اليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وابلاغه الى مدينة سلا ، وقدر ذلك صحفة شعير ، وعشرون مدا من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب ، ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك ، وبايصاله الى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنه

والسلام » اهـ .

ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية ، وذلك بعد ما وصـــل الى القصر : انى رحلت اليك ست عشرة مرحلة أما ترحل الى واحـدة ، فرحل الطاغية من موضع يقال له : تاهدارت ، ونزل على وادى المخازن بمقربة من قصر كتامة ، وكان ذلك من السلطان أبى مروان مكيدة ، ثم ان الطاغية تقدم بجيوشه ، وعبر جسر الوادى ونزل من هذه العدوة فامر السلطان بالقنطرة أن تهدم ، ووجه اليها كتيبة من الخيل فهدموها ، وكان الوادى لا مشرع له سوى القنطرة ، ثم زحف السلطان أبو مروان الى العدو بجيوش المسلمين ، وخيل الله المسومة ، وانضاف اليه من المتطوعة كل من رغب فى الاجر وطمع فى الشهادة ، وأقبل الناس سراعا من الآفاق ، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل،فكان ممن حضره من الاعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى وغيره.

قال فى «المرآة» : « كان الشيخ أبو المحاسن فى ذلك اليوم فى أحد الجناحين ، وأظنه الميسرة ، من عسكر المسلمين فى مقابلة النصارى دمرهم الله ، قال : فوقع فى ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه الى أن منــح الله المسلمين النصر ، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، والشيخ لم يتزلزل ، ولم يلتفت منذ توجه الى قتالهم حتى فتح الله عليهم » اهـ .

ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم الى بعض وحمى الوطيـــس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفى السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الاولى ، وكان مريضا يقادبه فى محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع على وفاته أحد الا حاجبه مولاه رضوان العلج ، فانه كتم موته ، وصار يختلف الى الاجناد ويقـــول : «السلطان يأمر فلانا أن يذهب الى موضع كذا ، وفلانا أن يلزم الراية ، وفلانا يتقدم ، وفلانا يتأخر » .

وقال شارح «الزهرة» : لما توفى السلطان أبو مروان لم يظهر الذى كان سائس المحفة موته ، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ، ويقول للجند :

« السلطان يأمركم بالتقدم اليهم » . وعلم أيضا بموته أخوه ، وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها ، ولم يزل الحال على ذلك ، والناس فى المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب ، والاصطلاء بنار الطعان ، واحتساء كؤس الحمام الى أن هبت على المسلمين ريح النصر ، وساعدهم القدر ، وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر ، فولى المشركون الادبار . ودارت عليهم دائرة البوار ، وحكمت السيوف فى رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار ، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتقال غريقا فى الوادى ، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا الا آثارها فخشعت نفوسهم ، وتهافتوا فى النهر تهافت الفراش على النار ، فكان ذلك من أكبر الاسباب فى استئصالهم ، وأعظم الحبائل فى اقتناصهم ولم ينج منهم الا عدد نزر وشرذمة قليلة .

وقال فى «المنتقى المقصور» : « كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى انها أشبه شيء بغزوة بدر . حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب اليدرى عمن يثق به أن الرجل من حاضرى ذلك المعترك كان يستبق الى النصرانى لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتا » اه .

وبحث فى القتلى عن محمد بن عبد الله المتصرخ بهم والقائد لهم الى مصارعهم فوجد غريقا فى وادى المخازن ، وذلك انه لما رأى الهزيمة فر ناجيا بنفسه واضطر الى عبور النهر فتورط فى غدير منه وغرق فمات ، فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشى جلده تبنا وطيف به فى مراكش وغيرها من البلاد .

وممن وجد صريعا فى القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفى الشفشاونى صاحب « الدوحة » ، فانه كان هرب مع المسلوخ ، وكان من بطانته ، فدخل معه بلاد العدو ، فوجد بين جيف النصارى قتيلا ، وتكلم الناس فى أمره ، حتى قيل : انه وجد على شماله مستدبر القبلة ، وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامام الشهير أبى محمد عبد الله الهبطى رحمه الله فى منظومته التى نظم فيها أصحاب أبيه معتذرا عن ابن عسكر

المذكور ومشيرا الى توهين ما قيل فيه :

ومنهم الشيخ الذى لا ينكـــر   محمد أخو الدهاء عسكـــــــر
وان يكــن أتــى بذنــب ظاهــر   فعرضه من الشكوك طاهـــــــر
رأيتـــه فــى النــوم ذا بشــاره   وهيئــة حسنــة وشـــــارة

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، ويوافقه من التاريخ المسيحى اليوم الرابع من أغشت سنة ثمـــان وسبعين وخمس عشرة مائة .

قال فى «المنتقى» وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثنى به بعض الميقاتيين .

وقال فى «المرآة» : وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب اذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة الا أن الغنيمة لم تقسم ، وانما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوى . وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره . وكنا نسمع أن البركـــة رفعت من الاموال من يومئذ .

وقد حضر الشيخ ابو المحاسن هذه الغزوة وابلى فيها بلاء حسنا وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشيء وبلغت قيمة النصرانى ما ذكره الشيخ ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبى مروان قبـــل هزيمة النصارى ، وكان مريضا ، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد .

وقد ساق منويل فى تاريخه خبر هذه الوقعة مساقا حسنا فقال : لما استولى عبد الملك السعدى المدعو عند أهل المغرب بمولاى ملوك على ملك المغرب ، وطرد ابن أخيه مولاى محمد المعروف بالاكحل يعنى : المسلوخ ، ذهب أولا الى اصبانيا، وتطارح على طاغية الاصبنيول فيليب الثانى فى أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل اشبونة وتطارح على طاغية البرتقال سبستيان فاجابه، وذهب الى خاله طاغية الاصبنيول فيليب المذكور آنفا وطلب منه الاعانة على ماهو بصدده، فوعده بان يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش ، لانه كان يرى انها تعدل سائر مراسى

المغرب ، ثم أمده بعشرين ألفا من عسكر الاصبنيول ، وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفا من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان ، ومثلها من الالمان ، ومن متطوعة الاصبنيول وغيرهم عددا كثيرا ، وبعث اليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى ؟ وبالف وخمسمائة من الحيل واثنى عشر مدفعا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء الى قادس .

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت اليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه في الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل فـــى أرض المغرب فصم على ذلك كله ، وجاء الى قادس ومنها خرج الى طنجة .

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفـــوا الى بلاد المغرب ، وزحف اليهم السلطان عبد الملك فى عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفا وزيادة ، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعا ، وقواد الجيش : أبو على القورى ، والحسين العلج الجنوى ، ومحمد أبو طية ، وعلى بن موسى ، وأخوه أحمد بن موسى ، الذى كان عاملا على العرائش ، فجاء فى جمعه الى السلطان عبد الملك وانضم اليه ، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم ، ثم استدعى النصارى الى القتال ، ونصب لهم علامته ، فاحجموا وكان قصدهم المطاولة ، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة ، وذلك لان محمد المسلوخ قد دس اليه من سمه .

قال منويل : ولما أحس عبد الملك بذلك ، وانه لا محالة هالك ، بـــذل نفسه للقتال ليموت فى الجهاد ، وكان المسلوخ يتربص كى يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة فى عسكر المسلمين ، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فألجأهم ذلك الى المناجزة ، ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين .

قال منويل: وكان امر هذا الرجل عجبا فى الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه ، كأنه يشير الى جيشه أن يسكتوا عـــن الخوض فى وفاته حتى يتم أمرهم ، ولا يضطربوا ، وكذلك كان ، فانهـــم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لاكفاء له ، فكانوا يذبحونهم مثل الكباش

ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم ، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب ، وزادهم دهشا أن بعض طوابيرهم كان ينادى صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار فى بارود النصارى فنفط، وانهزموا الى وادى المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقى أسره المسلمون .

وزعم أن سبستيان هلك تحته فى ذلك اليوم أربعة أفراس ، وكان شابا حدثا، وقال لاصحابه: « ان ترونى ترونى أمامكم وان لم ترونى فانافى وسط العدو أقاتل عنكم» قال : وأبدأ وأعاد فى ذلك اليوم الى أن خر قتيلا ، وبقى مذكورا عند البرتقال يسمرون بأخباره ، وذكره شعراء الاوربا فى أشعارهم ، ولا زالوا يذكرونه الى الآن .

وخلفه فى ملكه الطاغية الريكى البرتقالى فهو الذى ولى بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى أن هلك الطاغية الريكى، وتولى على البرتقال طاغية الاصبنيول فيليب الثانى ، فصار ملك الدولتين معا ، وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة الى أشبونة ، ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربى والعجمى موافقا لما مر فهذا ما ذكره فى هذه الوقعة .

قال فى «النزهة» : توفى السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ فى زوال اليوم المذكور ، وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتى ان شاء الله .

قال فى «درة الحجال» : « فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد ، وهم : أبو مروان بن الشيخ ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ ، والطاغية سبستيان ، وأقام واحدا وهو أبو العباس المنصور » اه .

قلت : وفى اهلاك الثلاثة واقامة الواحد اشارة واضحة لاهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد فى ذلك اليوم والله تعالى اعلم .

ولما بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم ، أعنى القائم بالامر بعد سبستيان لان التحقيق انه كان الاعظم يومئذ لما مر ، بعث الى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده الى فاس كما سيأتى يلتمس منه الفداء فيمن بقى بيده من

الاسارى ، فأجابه الى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة . وذكر بعضهم أن الاسارى لما ذهبوا الى بلادهم قال الطاغية : « لم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل ان يصل ملكهم ؟» فقالوا له: « امتنع من ذلك الامير الذى كان علينا » . فامر بهم فاحرقوا جميعا .

مضحكة : قال فى « النزهة » : « ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله » اه .

وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخى الفرنج النجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بانها كانت سبب هلاك البرتقال وتلاشى دولتهم وبطلان كرسى سلطنتهم حتى استضافهم اليه طاغية الاصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته ، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتقال قتلوا فى ذلك اليوم ما نصه : « وكانت يعنى الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوما مشؤما . وبالجملة فقد قتل فى ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسى سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثانى ملك اصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها » اه كلامه . الا أنه ذكر أن السبب فى استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتقال هو تغلب الاصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط ، ولعله تصحف عليه لفظ الاصطنبوليين بالاصبنيوليين ، اذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان انما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثمانى والله أعلم .

وقد ألم بهذه الوقعة أيضا لويز مارية فى كتابه الموضوع فى أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته فى السكوت عن مايكون من الظهور فى جانب المسلمين واشاعة ما يكون من ذلك فى جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال فى وصفها كلاما هذه ترجمته : « وقد كان مخبوءا لنا فى مستقبل الاعصار العصر الذى لو وصفته كما وصفه غيرى من المؤرخين لقلت

هو العصر النحس البالغ في النحوسة الذى انتهت فيه مدة الصولة والظفـر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتقال وانطفأ مصباحهم بين الاجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجـاء واضمحل ابان الغنى والربح وذلك هو العصر الذى هالك فيه سبستيان فـى القصر الكبير من بلاد المغرب » اهـ. فهذا كلام هذا البرتقالى قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هى ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الاعداء»

ولما تمت للسلطان أبى العباس المنصور البيعة بوادى المخازن طالبـه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا اعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانهم جعلوها نهبى ولم يقتسموها على الوجـه الشرعى كما سبق فصعب استخراجها منهم لعـدم التعيـين وجرأة النـاس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه فى عطائهم .

ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات الى الآفاق بهذا الفتح المبيـن فكتب الى صاحب القسطنطينية العظمى والى سائر ممالك الاسلام المجاوريـن للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم فى نحرهم فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد ان شاء الله .

بقية اخبار السلطان ابى مروان وسيرته

قال ابن القاضى : « كان سبب وفاة السلطان أبى مروان رحمه الله أنه سقى سما ، وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه ، واسمه رمضان العلج ، بعث الى بعض قواده أن يتلقاه بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه ، وقصد بذلك قتله ، وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله » اهـ . ولما توفى حمل الى مراكش فقبر بها ، وكانت مدة خلافته

أربع سنين ،ومن حجابه : القائد رضوان العلج . وكتابه : محمد بن عيسى ، ومحمد بن عمر الشاوى ، وقضاته : قضاة ولداخيه .

وكان يتزيا بزى الترك ويجرى مجراهم فى كثير من شؤنه. وكان يتهم بالميل الى الاحداث وربما كان يظهر ذلك ، وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كما مر ، وكانت له فيه محبة تامة ، وكان يظهر أنـــه ولى عهده ويرشحه لذلك كثيرا حسبما أفصحت عنه رسائله التى كان يبعـــث بها اليه .

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث :

ففى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة كان الوباء بالمغرب كما قدمنا .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلات منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الآبار .

وفى سنة احدى وستين وتسعمائة توفى الشيخ أبو محمد عبد الله بـــن ساسى من أولاد أبى السباع ودفن بزاويته على ضفة وادى تانسيفت من أعمال مراكش ، وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل .

وفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة توفى الشيخ الامام أبو محمد عبد الله ابن محمد الصنهاجى الطنجى المعروف بالهبطى ، وكانت وفاته فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن فوائده ما حكاه عنه فى « الدوحة » قال : « سألت شيخنا الامام أبا محمد عبد الله الهبطى عن الشيخ أبى محمـــد الغزوانى ، وكان من أصحابه ، فقلت له : ياسيدى ما لسائر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزوانى كأبى الحجاج التليدى وأبى البقاء اليالصوتى وأبى الحســن على بن عثمان وغيرهم يصرحون بقبطانية الشيخ وينسبونك أنت الى التقصير فى حقه حيث لم تقل بما يقولونه ؟ » ، فقال لى رضى الله عنه : «قدعلمت معنى الشهادة فى الشرع ما هى » ، فقلت : « نعم » فقال لى : « كيف لى أن أشهد لاحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لى عنه فان فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له: «وأى شهادة تشهد فى الشيخ؟ » فقال لى : أشهد

أنه من العارفين بالله تعالى وانه كان يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال» انتهى
قلت : وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة ، وتجد كثيرا ممن عقله وراء لسانه يتقولون على الله فى غيبه ويخبطون خبط العشواء وينسبون المقامات والاحوال لمن ليس منها فى قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنه .

وفى سنة أربع وستين وتسعمائة فى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلى العظيم .

وفى سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهلـه وجباله ، وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره الى سنة ست وستين بعدها .

وفى سنة احدى وسبعين وتسعمائة توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولى ثم السملالى الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبى فارس عبد العزيز التباع، والشيخ أبى العباس أحمد بن يوسف الراشدى ثم الملياني.

وفى سنة ست وسبعين وتسعمائة ليلة عيد الاضحى منها توفى الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجى ثم الفرجى الدكالى المعروف بالمجذوب الولى المشهور دفين مكناسة الزيتون، كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده الى مكناسة فمات بها .

وفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة بعد صلاة الجمعة من أول يوم مـن المحرم منها زلزلت الارض زلزالا شديدا وفزع الناس لذلك، وفى هذه السنة فى الحادى والعشرين من ربيع الاول منها توفى الشيخ ابـو محمد عبد الله ابن حسين من شرفاء بنى آمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله .

وفى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وذلك اواخر شوال منهـا الموافـق لاواسط مارس العجمى حدث بالمغرب جراد كثير ؟ وفى أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهودا، ثم ظهرت فى أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر فى الجو من الناحية الشرقية تبعتها فى الارض أجناد الترك التى جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر . وفى أيام السلطان أبى مـروان

المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير فى برج العقرب وطلع أياما ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى اثره كان خروج البرتغال من طنجة ووقعة وادى المخازن كما مر ؟ والله تعالى أعلم بغيبه

الخبر عن دولة السلطان ابى العباس احمد المنصور بالله السعدى

المعروف بالذهبى واوليته ونشاته

كانت ولادة السلطان أبى العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبى عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وأمه : الحرة مسعودة بنت الشيخ الاجل أبى العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتى الوارززاتى ، وكانت من الصالحات الخيرات وستأتى بقية أخبارها .

وذكر فى «المنتقى» قال : مرض المنصور فى صغره مرضا شديدا حتى أيس منه ، فرأت أمه فى النوم شخصا يقول لها : أزيريه الشيخ أبا ميمونة فانما اصابته عين فازارته اياه فعوفى، وكان ابوه المهدى ينبه على انه واسطة عقد اولاده .

قال فى «مناهل الصفا» : حدثنى الشيخ المسن القائدابو محمد مؤمن ابن الغازى العمرى ان المنصور اقبل يوما فى حياة أبيه، وهو صبى والمجلس غاص بالاكابر، فاندفع يخترق الصفوف ، قال : فصاح بى المهدى اذ ذاك ، وأنا أصغر القوم ، فقال « يامؤمن ، ارفعه فسينفعك أو ينفع عقبك » فابتدرت حمله، وكان كذلك ، فان المنصور لما أفضت اليه الخلافة كان القائد مؤمن بن الغازى عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية .

ونشأ المنصور رحمه الله فى عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة لاهله عليه ، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم الى أن تم أمره . حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد ابن على الجزولى الدرعى أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن

السلطان أبى عبد الله الشيخ وأولاده ، قال : فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لانه كان أصغرهم سنا يومئذ » . فقال لى : « بقى منهم من لم تذكره » فقلت له « أحمد » فقال : « ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم» فكان كذلك .

وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالى : « لما أخذ المهدى البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جدا، وقال له : « ان الفائدة فيه » أو كما قال . وهكذا كان ينبه على أنه واسطة عقد أولاده : وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وأنواره تشرق ، قال · فوقع فى نفسى أن أسأله عن نصيبى من الخلافة فكاشفنى عليه الصلاة والسلام بما فى خاطرى ، وأجابنى بما حقق لى نيلها، ثم أشار لى بأصابعه الثلاثة الشريفة ضاما الابهام منها الى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين » اه .

وقال الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامنارتى فى كتابه «الفوائد الجمة باسناد علوم الامة » : « أخبرنى الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغى صاحب «الحسبة» بتارودانت أنه رأى فى منامه كأنه فى حلقة يسرد فيها صحيح البخارى بموضع من دار الخلافة بها ، وأبو العباس المنصور يومئذ بها ، وذلك قبل ولايته ، قال : فرأيت فى طرة الكتاب هذا اللفظ : «ورى الزند » فكنت أتأمل معناه فالتفت فاذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع فى نفسى أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له : ياسيدى ، ما معنى هذه الكلمة التى فى طرة هذا الكتاب؟ » فقال لى : « قل لمولاك أحمد : أنا الذى أوريت زندك ما دمت على الحق فان عدلت عنه فانا برىء منك». فقلت له: «ومن أنت ياسيدى؟» فقال لى : « رسول الله صلى الله عليه وسلم»، ثم لم يمض الا قليل حتى ولى الخلافة وحمدت سيرته ، قال أبو زيد : « وناهيك بزند أوراه النبى صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن ولاية الاسلام لا تنعقد الا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم وقد اشتهرت المرائى بذلك » .

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب « ابتهاج القلوب فى مناقب الشيخ

المجذوب » : « أن الشيخ الصالح أبا عبد الله محمد الملقب بكدار ابن الشيخ أبى زكرياء يحيى بن علال المالكى البوخصيبى رأى النبى صلى الله عليه وسلم يوما فشكا اليه أولاد مطاع لما رآهم عليه من الفساد فى الارض ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يأتيهم أحمد » ، فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فأخذهم وفل جمعهم » اه . وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة .

وكان رحمه الله طويل القامة ممتلىء الخدين ، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة ، أسود الشعر ، أدعج أكحل ، ضيق البلج ، براق الثنايا ، حسن الشكل ، جميل الوجه ، ظريف المنزع ، لطيف الشمائل .

وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارى بوادى المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى سنة ست وثمانين وتسعمائة ، واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد ، ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمدى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادى المخازن ، ثم بعث الى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة ، وسارعوا الى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة .

قال الفشتالى : لما كانت وقعة وادى المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الامر للمنصور كتب الى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثمانى والى سائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من اظهار الدين وهلاك عبدة الصليب والاستئصال شأفتهم، فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنئين له بما فتح الله على يده : وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ، ثم تلته أرسال طاغية البرتقال ، وهو الريكى القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان ، وليس خاله وانما خاله طاغية الاصبنيو لفيليب الثانى الذى جمع المملكتين معا بعد هلاك الريكى المذكور وبعد وقعة وادى المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريص والعجل ، فعجب الناس منها عجبا

بليغاء وكان ذلك اليوم يوما مشهودا وكان من جملة مافيها ثلاثمائة ألف دكات من ريال الفضة ، وأما الطرف النفيسة والاثاث الرفيع فشيء لايحصى ، ثم وردت ارسال طاغية الاصبنيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التى انتزعها الطاغية من تاج آبائه ، وصنيديق مملوء من الدر الفاخر ، وقضب الزمرذ وغير ذلك ، وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعنى هدية البرتقالى وهدية الاصبنيولى أيهما أعظم ، ولم يهتد أهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت أرسال السلطان مراد العثمانى ومعهم هدية وهى : سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن ، ثم قدمت أرسال طاغية افرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور ، والارسال تصبح وتمسى على أعتاب تلك القصور ، الى أن لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس اليه وحينئذ اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار .

وفى جمدى الاولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضا مخوفا وطال به حتى كادت الامور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبى عبد الله محمد الطبيب ، ولما أبل من مرضه أحسن الى الطبيب المذكور ونثر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى ، وكان يوم خروجه يوما مشهودا ، وفى ذلك يقول الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف بالنابغة:

تردى أذى من سقمك البر والبحر ... وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مسهدا ... وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التى ... أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها ... وعاد الى ابانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام فى كل بلدة ... يهنى ويدعى أن يطول لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها ... وعادت الى الايناع أغصانها الخضر
ولا غرو ان صامت على سمط الندى ... اذا اغبر وجه الارض واحتبس القطر
لبيت أبى العباس أنضت عجافها ... قديما فخافت أن يعاودها الضر
لئن صدئت بيض للمعالى لقد غدت ... تسىء الكماة البيض واللدن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذماره ... ويحميك رب العرش ما بقى الدهر

عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المامون

قال الفشتالى : لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحة أجمع رأى أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولى عهده ، وكان المنصور مهيبا لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البادىء لذلك القائد المؤمن بن الغازى العمرى لما له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور : « يامولانا ، الله تعالى حفظ الاسلام بابلالك من هذا المرض وعصم الدين بابقائه عليك وقد بقى الناس فى أيام سقمك فى حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ، ويشار بالخلافة اليه، لكان أولى وأليق بسياسة الملك ، وان ابنك الابر أبا عبد الله محمد المأمون حقيق بذلك ، وجدير بسلوك تلك المسالك ، لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة ، زيادة على ما هو عليه من التيقظ فى أموره والحزم فى شؤونه ، وقد ظهرت للناس محاسن سيرته ، وأطلعوا على جميل سريرته » فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به ، فقال له : « سوف أستخير الله فى ذلك فان يكن من عند الله يمضه» قلت : هذا الذى حكاه الفشتالى على لسان القائد مؤمن فى حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا ان شاء الله ، ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالبا ، لا سيما اذا كان من يعنونه بذلك مخدوما لهم ومنعما عليهم ، فلا ينبغى لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه الا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادى الى الصواب بمنه . ثم لبث المنصور بعد هذه الاشارة أياما يستخير ربه فى ذلك ويستشير من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح ، فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الاشارة ، جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس وغيرهم من أشياخ القبائل ووجوه الناس من أهل الحواضر والبوادى ، وأوصى

بالعهد لولده المذكور أبى عبد الله محمد المأمون ، وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة .

وكان المأمون اذ ذاك خليفة ابيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث اليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته ، ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب ، ولما بعث اليه خرج المنصور بعسكره الى تاسيفت خارج مراكش ثانى عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة ، ولم يزل بعسكره هناك متلوما ومنتظرا لقدوم المامون الى أن قدم غرة جمدى الثانية من السنة المذكورة، فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان ، ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافى القدم فعفر وجهه بين يدى والده ثم قبل رجله ، والمنصور على فرسه واقفا بين الصفين ، فدعا له بخير وأظهر الفرح بمقدمه ، وكان المأمون قد عبا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتبهم ترتيبا حسنا فى لباسهم وسائر أمورهم، فسر المنصور بذلك، وبعد أيام من بلوغه أمر به فاجلس فى سرادقه الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتى ، وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضرته ، وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال ، وغمر المنصور الناس بالنوال ، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع الى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذى قصده .

ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب فى ذلك

قال الفشتالى : لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الاجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ ، وهو ابن أخى المنصور ، وفر الى جبل سكسيوة وشق العصا ودعا الى نفسه ، فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم ، ونجم أمره وأثرت فى أذن الرعية جعجعته ، فبعث اليه المنصور قائده الزعيم أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فناوشه

القتال بجبل سكسيوة فهزمه ، وفر الى جبل هوزالة فتحزبوا عليه،وقويت بهم شوكته ، وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة الى أن ضاقوا به ذرعا فشكوا أمره الى المنصور فبعث اليه قائده الذى ذكر فلم يزل فى مقابلته ومقاتلته الى أن شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه الى الصحراء ، واستقر به الرحيل بها عند عرب الوديايا من بنى معقل فلميزل عندهم الىان هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره .

حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثمانى وتلافى المنصور لذلك

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور الى السلطان سليمان العثمانى وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذى كان سببا فى تملكهما المغرب ، ولما صفا الامر لعبد الملك أهمل جانب العثمانى ولم يكاتبه بشىء ولا عرج عن ساحته، ثم لما ملك المنصور وكتب الى النواحى بخبر وقعة وادى المخازن كتب الى السلطان مراد فى جملتهم فبعث السلطان المذكور الى المنصور بالهدية التى تقدم ذكرها وكان المنصور استقلها وانف منها، فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته ، وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببا للنفرة ، وكان وزير البحر للعثمانى ، واسمه الرئيس على علوج ، يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القدح فى ولاية الترك والطعن عليهم ، وقال له فى ذلك : « قد ضاع صنيعك فى هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك» ولم يزل يفتل له فى الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أذن له فى توجيه العمارة اليه ومنازلته والاخذ بآفاقه الى أن يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته ، ويقال : ان السلطان مرادا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة الى الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر فى البر الى المغرب ، فأخذ الوزير فى التأهب لذلك واتصل

الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل النجليز ، فارتحل الى فاس من حينه وشحن الثغور وملأ المراسى ، وكان على أهبة وكمال استعداد ، وبعث ارسالــه الى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيا لمافرط واعتذارا عماسلف . وكان من جملة أرساله القائد الانجد ابو العباس احمد بن ودة العمرانى، والكاتب الشهير ابو العباس أحمد بن يحيى الهوزالى ، فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى ، وبينما هم فى أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج فى أسطوله قاصدا ديار المغرب عازما على منازلة المنصور به ، فلما رآهم سقط فى يده ، وأيقن بخيبة مسعاه ، فرام صدهما عما قصدا اليه وأيأسهما من تدارك الامر ، وقال لهما : « ان الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض فى المسالمة ما بقى أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادى أظلم » فلم يـــزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة الى أن صرفه عن رأيه ورده معه ، وتـــرك الهوزالى يبلغ الرسالة والهدية ظنا منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام ، وابن ودة الذى كان عنده مظنة لكمال التدبير ومثافنة الملـــوك رده معه ، فلما انتهى الهوزالى الى السلطان مراد ودخل عليه أظهر من نبله ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور ، واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه ، ولا يفيد غلبة خصمه،فقبل السلطان مراد الاعتذار،وتقبل الهدية بقبول حسن ،وكتب مع الهوزالى الى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور ، فرجع بها الهوزالى يطير سرورا ، ولم يغب عن علوج الا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملـك ، فقرع لها علوج سن الندم ، وأسف على تفريطه فى الهوزالى وتركه ، وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالى الى المنصور يلومه على التراخى فى أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين الى مرسلهم ، وبعث معهم الفقيه الامام قاضى الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن عــلى الشاطبى ، والقائد الانجد ابا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيظمى المريدى ، فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح ، ورتب الشاطبى كلاما بليغا أعرب فيه عن فضل الدولتين ، وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى المنصـــور

وحض فيه على اتحاد كلمة الاسلام ، وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه ، ثم بعد أيام أحسن اليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين الى مرسلهم.

وقال صاحب «خلاصة الاثر» : كان المنصور موادعا لسلاطين آل عثمان فيرسل اليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد بن سليم كتب اليه أثناء مكاتيبه : « لك على العهد أن لاأمد يدي اليك الا للمصافحة ، وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة » وكانت رسله دائما تأتي الى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الاديب محمد الامين الدفتري ، فقد ذكر صاحب « خلاصة الاثر » أن هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها الى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة ، وقد ذكر صاحب «خلاصه الاثر» في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره .

ولما تكامل هذا الغرض ، وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الارسال في أحسن الاحوال عاد المنصور الى مراكش، وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرىء البخاري بين يديه سردا على عادة الخلفاء في ذلك ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة .

ايقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك

قد قدمنا في أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ماكان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها. ولما أدبرت دولة بني مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحاشوا اليه وأظهروا الخدمة والنصيحة ، فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدي لابي حسون كما مر ، فلما غلب

المهدى على المغرب وصفاله أمره خلعهم من الجندية ، ووظف عليهم الخراج ، ومحا اسمهم من ديوان الخدمة . ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده، ولم يزل الامر على ذلك الى أيام المنصورفرأى جلادهم يوم وادى المخازن وحسن بلائهم، فاختار النصف منهم ورده الى الجندية، وأبقى نصفهم الآخر فى غمار الرعية ونقلهم الى آزغار فاستوطنوه حينا من الدهر ثم عاثوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بنى حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور ، فضرب عليهم سبعين ألفا غرامة ، فلم يزدادوا الا عتوا وشدة، فأرسل اليهم ليبعثوا طائفة منهم الى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث اليهم القائد موسى بن أبى جمدى العمرى فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة . ثم حكم السيف فى رقابهم . واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم ، ولانت للغامز قناتهم .

استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه الى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف الى ذلك من القرى والمداشر ، اذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدى الملوك ولم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر الى ما يراد منهم ، فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم الى أمر الله فبعث اليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة ، والقائد أبا العباس أحمد بن الحداد العمرى المعقلى ، فى جيش كثيف فقطعوا اليهم القفر من مراكش ، وانتهوا اليهم على سبعين مرحلة منها ، فتقدموا اليهم أولا بالدعاء للطاعة والاعذار والانذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياما ، ثم كان الظهور لجيش المنصورفأوقعوا بهم وأثخنوا فيهم الى أن أذعنوا للطاعة. وصاروا فى حزب الجماعة ، وأنهى خبر الفتح الى المنصور فسر بذلك سرورا عظيما

وقال الشعراء فى ذلك وعم الفرح بلاد المغرب، وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة
وبعد هذا تشوفت نفس المنصور الى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها
ما نذكره ان شاء الله .

تلخيص القول فى سودان المغرب والاشارة الى ممالكهم
ودولهم من لدن الفتح الاسلامى الى هذا التاريخ

اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق
النسابين والمؤرخين ، ويجاور البربر بارض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها
أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل
السودانى فيه ، وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو بصادين
أو سينين مهملتين مضمومتين ، ثم بعدها أمة أخرى يقال لها : مالى ، ثم بعدها
أمة أخرى تسمى كوكو ويقال: كاغو، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال
لهم أيضا : سغاى، ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم وهم أهل مملكة برنو المجاورة
لافريقية من جهة قبلتها . ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا الى
آخر الشرق أمم لا يحصيهم الا خالقهم .

فأما أهل مملكة غانة فقد كانوا فى صدر الاسلام من أعظم أمم السودان
أسلموا قديما وكان لهم ملك ضخم ، وكانت حاضرة ملكهم هى غانة وهى :
مدينتان على ضفتى النيل السودانى من أعظم مدن العالم وأكثرها عمرانا ذكرها
صاحب « نزهة المشتاق » ، وصاحب «المسالك والممالك» وغيرهما .

وقال الفقيه الاديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى
فى «شرح المقامات الحريرية» ما نصه : غانة بلد من بلاد السودان واليها ينتهى
التجار يعنى من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ومن
سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف
ودون ذلك . وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال
فتباع فى غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين حملا يرجع منها بثلاثة أحمال أو

السلطان سليم العثمانى أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له فى امـــارة بلاد السودان ، وأن يكون خليفته هناك ، ففوض اليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الاقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين ، فرجع الحاج محمد سكية الى بلاده ، وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهـاج أهل السنة ، ولقى بمصر أيضا الامام شيخ الاسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطـى فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام ، وسمع عليه جملا من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه ، فرجع الى السودان ونصر السنة وأحيى طريق العدل ، وجرى على منهاج الخليفة العباسى فـى مقعده وملبسه وسائر أموره ، ومال الى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال ، وبرىء جسد الرشاد من الداء العضال ، وكان الحـــاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين محبا للعلماء مكرما لهم يفسح لهم فى المجلس ويوسع عليهم فى العطاء ولم يكن فى أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته فى خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيئا خفيفا من المغارم وظفه عليهم، وزعم انه ما فعل ذلك حتى استشار الامام السيوطى شيخه ، ولم يزل على سيرته المذكـورة الى أن اخترمته المنية ، فقام بالامر بعده ولده داود بن محمد فاحسن ما شاء وتبـــع طريقة أبيه الى أن لحق بربه ومضى لسبيله ، فقام بالامر بعده ولده اسحق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه ، ولم يكن فى أمره بالذميم ، واستمر حالـه على الانتظام الى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه ونثرت سلكه ، وانقرض عليه أمر آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان. وسنذكر كيفية ذلك

وأما مملكة التكرور وكانم فقال ابن خلكان ما نصه : « كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب الى أب ولا أم وانما كانم اسم بلدة بنواحى غانة فسمى هذا الجنس باسم هذه البلدة، وتكرور اسم للارض التى هم فيها وسمى جنسهم باسم أرضهم » اه.

قلت: وكان من كانم الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمـــــى الاسود الشاعر وهو الذى دخل على يعقوب المنصور الموحدى فانشده :

أزال حجابه عنى وعينـــــى ... تراه من المهابة فى حجـــاب

وقربنـــى تفضلـــه ولكـــن ... بعدت مهابة عـنـد اقترابـــى

وأهل كانم هم أهل مملكة برنو المجاورة لافريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية فى المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لاهل مالى مع بنى مرين .

قلت : ومن أهل برنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرنوى شيخ الولى العارف بالله تعالى أبى فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع فى مناقبه كتاب « الذهب الابريز » .

واتصل أمر أهل برنو على الانتظام الى أن كان من أمرهم مع المنصور ما نذكره ، وكل هؤلاء الامم كانوا على دين الاسلام قديما كما رأيت ، وكان فيهم العلماء والصلحاء والادباء والشعراء كما علمته آنفا وتعلمه فيما بعد ان شاء الله تعالى .

قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السودانى فى تقييده المسمى « بمعراج الصعود » : «ان أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا وكنتى وبرنو وسغاى ما سمعنا قط أن أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم ومنهم من هم قدماء الاسلام كأهل مالى أسلموا فى القرن الخامس أو قربه وكأهل برنو وسغاى » اه . وقد علمت أن أهل غانة تقدم اسلامهم على هذ التاريخ والله تعالى أعلم . ولنرجع الى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول :

١٠٤

وصول هدية صاحب برنو الى المنصور بحضرة فاس وما نشا عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته

كان المنصور رحمه الله مسعودا محظوظا كما أشرنا اليه سابقا ، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سببا فى مبايعته له والدخول فى طاعته . وكان من خبر ذلك ما حكاه فى « مناهل الصفا » قال : « وفى سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الحبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان ، وجلب فى هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والاماء وكسا السودان وطرفه ، وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين ، فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس ، وكان يوم ملاقاته يوما مشهودا حسنا وأبهة وجلالة ، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه ، وهو آفراك ، واستوقف الموالى والمماليك سماطين من التوأمين الى القبة العربية ، ثم منها الى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه الى باب المعسكر القبلى ، وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان ، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوسا وكرسى المملكة وسرير الخلافة منصوبا به ، والمهابة قد أخرست الالسن وأخشعت القلوب والابصار ، فجلس الرسول هنالك مليا ، ثم توجه به على سبيل الترقى الى القبة العربية فجلس بها ، ثم جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر الى طلعته السعيدة فادى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله، ثم توجه به الى معسكر ولى العهد وتاج الاسلام وكافل الامة بعد والده المولى الاميرأبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء ، فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة ، واستدرج الى أن وصل

لقباب و لى العهد ومضاربه ، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود . ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيى وفدى وانصرف عنه الى محل نزوله بالقصبة من فاس ، وأدر عليه من الانعام والاكرام ما لم يكن له فى حساب .

وكان من أغراض الرسالة التى أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار ، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثمانى يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل ، فوجهه فى هذه النوبة الى ملك المغرب يطلب منه المدد ، ولما قرىء كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذى دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر اليهم ذلك توغلهم فى الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم من فرسان الانشاء والكتابة ، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة ، وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطرى توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلهما ركابا لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التى وجه اليها عساكره بعد ذلك ، فبلغت مملكة مالى عظيم السودان الى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب ، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ورجع الرسول الى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر . ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذ ذاك عن مراده ورد الرسول ثانية الى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش ، فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود ، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء الى التى هى أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول فى دعوته النبوية التى أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد فى أقطار البلاد الانقياد اليها ، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق ، أن الجهاد الذى ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم

يستندوا في أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله أمير المؤمنين بوصفه اذ هو الكافل لهذه الامة ، ووارث تراث النبوة ، وقيضه الله لحماية بيضة الاسلام، وخصه بالشرف القرشي الدى هو شرط في الخلافة باجماع من علماء الاسلام وأئمة السنة الاعلام ، وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته ، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته ، وعلق لهم أيده الله الامداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول ، وزعم أيضا عن سلطانه بالقبول والاجابة ، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة اذ ليس ببلدهم من يحسن الانشاء، ويوفي الغرض لئلا يخلو بشيء من الشروط التى شارطهم عليها أمير المؤمنين فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالى ونصها : « الحمد لله الذى أعلى لكلمة الحق منارا يسامى فى مطالعها النجوم ، وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم ، وحى على الفلاح بها داعى التوفيق الذى نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم ، وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنية العلوية التى صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعه ، واستبان الحق بتبلج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعه ، ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التى هى بسيف النبوة المصلت مقطوعه ، وبلسان السنة مدفوعه ، وقوض بها مبانى الادعاء التى هى على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعه ، وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التى هى على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعه ، وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدى سيف الانفة والامتعاض ، وأشار للاعادى من بأسها المروع بلسان الحية النضناض، وفجر للمومنين ينبوع رحمتها الجارى على حصا عدلها الرضراض، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والاقطار تمهيدا أزال عن حكمه الاعتراض ، وجلا بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التى ادلهم جوها وغيم ، وأسعد الوجود بيمنها الذى لبث في أكناف مجدها وخيم ، وقضى لها بتراحم الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى بن مريم ، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة ، ونهج

للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعه ، وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه ، نبى الرحمة وشفيع الامه ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، أئمة الهدى ومصابيح الظلام ، والدعاء لمولانا الامام العلوى الهمام ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، نجل سيد المرسلين وخاتم النبيئين ، وسليل الوصى واسبطين ، وبعد ، فانه لما أذن الله فى ليل الجهالة أن ينجاب ، وفى شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب ، وفى العز الخلق الجلباب أن يعود الى الشباب ، وفى النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب ، وفى الامارة أن تستند الى السنة والكتاب ، وتتعلق من الشرع بأسباب ، تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العلوية ، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها ، وارتفع الى حيث السها والفرقدين منارها ، وتبلج بالاصباح نهارها ، ولاحت فى سماء المجد بدورها وأقمارها ، وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها ، وانتشرت فى الآفاق والاقطار على البعد والقرب آثارها ، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها ، وفاض ببركتها على أكناف المعموريمها الزاخر وتيارها ، خلافة ينتمى الى النبوة عنصرها ، وتستنبط من رسالة الوحى أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وامامة على وليها والله نصيرها ، والسبط بدرها الذى حياء منبرها وسريرها والحمد لله الذى اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، اماما ألقى الله له فى القلوب حبا جميلا ، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلا ، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعى لخلقه وعباده كفيلا ، وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا ، مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله فى الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين ، والممنون بامامته المقدسة على العالمين ، بحر الندى والباس وعصمة الله للناس ، أمير المومنين المنصور بالله مولانا أبا العباس ، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين ، والائمة الطيبين الطاهرين ، وطيب بانفاس المغفرة لحودهم ،

أجمعين ، امام تهتز لذكره أعطاف المنابر ، وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر ، وتستضىء البلاد باكليل شرفه الزاهر ، وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ، أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه ، وخلد له ولا عقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامة ، ولما طلعت أيده الله على هذه الاصقاع الزنجية طلائع امامته النبوية وخلافته ، ولاحت في سمائها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأنافته ، وتليت لمجده الآيات البينات التى تشهد له بتراث الرسالة، وتقضى له على الاسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة ، وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بامامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم ، كما قال عليه السلام : « لا تزال الخلافة فى قريش ما بقى منهم اثنان » وكما ورد فى صحيح الخبر : « ان الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار وفى الحبشة الاذان » ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان ، فلا ناكر ان ليس فى المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان ، فنهض بدليل الشرع انه امام الجماعة حقا المستوفى شروطها ، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الاسلام أن يحوطها ، وأن القائم بهذا الامر على الاطلاق غيره دعى ، ومحاوله دون اذنه المشروع بدعى ، فتعين لذلك أن الرجوع الى الحق فريضه ، واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقى فى الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة ، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضه ، فانتدب لهذه الآثار صحيح الاخبار وصرف الى رضى الله العناية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغايه ، الرئيس أبو العلاء ادريس أكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق ، على حضرة الاخلاص والتصديق ، وأخذت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتأييد صاحب ورفيق، وروض الآمال أنيق ، وراح الراحة والاطمئنان عتيق ، الى تقلد امام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا التى تؤسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان ، وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن ، وآثر أسعده الله أن يؤدى فرضها المعدود من فروض

الاعيان ، وحكمها الذى توجه به خطاب الشرع العام الى القاصى والدان ، وينشر سنتها المشروعة فى صقعه وما يليه من الاصقاع والبقاع بالسودان تقلدا يستضىء ان شاء الله بأنواره ، ويستشرف به للعز المكين على مناره ، ويخمد بـه الجهل جذوة ناره ، وتنتظم به فى اتباع الحق زمر أنصاره ، ويجتلى به صورة انسانه ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانه ، ويرهف به للعـــدو على العزمات حد سيفه وسنانه ، ويقرع به لرضا الله باب القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبـــوه ، ويعود له به الزمان للشباب والفتوه ، ويرفع به منار الامارة على قواعد الشرع الوثيقه ، ويعدل به فى كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقه ، وتتسنى له به وهى المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى ، الاسوة الحسنة بامامى بنى العباس السفاح والمنصور، ويحيى سنتهما التى نقلها ثقات الاعلام والصدور، فى مبايعتهما الامام الخليفة المهدى الاكبر سليل سيد المرسلين وجـد مولانـا أميـر المؤمنين الذى رأى امام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق ، وفى منصب الامامة على شرطها أعرق ، وبسريرها ومنبرها أليق ، فتأكـــد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العزم والقصـــد ، وأنجز له فيمـا أراده صادق الوعد ، وساعد نيته الصالحة فيه السعد ، فبايعه أعلى الله يده على الامن والامانة ، والعفاف والديانة ، والعدل الذى يشيـــد للمجد أركانه ، مبايعة شايعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعـه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق ، وبجميع الايمان الصادقة الايمان ، أعطوا بها صفقة أيديهم ، ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم ، وامضوها على السمع والطاعة والانتظام فى سلك الجماعة امضاء يدينون به فى السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة ، والازمان المشتدة ، والتزموا شروطها طوعا ، واستوعبوهـا جنسا ونوعـا ، بنيات منهم خالصة صادقة ، وعدة من اللـه لهـم بالخيـر سابقـة ، وسعادة بالحسنى لاحقة أبرموا عقدها ، وأحكموا وعدها وعهدها ، على حكم الكتاب والسنة والجماعة ، والاخذ بسنتها أعقابا عن أعقاب ، وأحقابا اثـر

أحقاب ، الى يوم القيامة واقتراب الساعه ، لا يلحق عقدها الكريم فسخ ،
يعقبه بحول الله نسخ ، ولا يتطرق اليه نقض ولا نكث ، ولا يشوبه بشر
الشبهات بحث ، وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضة ، والايمـ
اللازمة المغلظة هو وأتباعه اجماعا شرعيا ، وحتموه على أنفسهم حتما مـ
واعتقدوه اعتقادا أبديا ، وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفـ
وأزواجا ، وحاانا وأفواجا ، وأشهدوا على الوفاء به بايمانهم الصادقة الب
ومواثيقهم المثلجة للصدور ، قائلين : بالله الذى لا اله الا هو الملك القد
العليم بالخفيات ، والخبير بالآجال والوفيات ، وبجميع الرسل الكـ
والانبياء ، وملائكة الرحمن فى الارض والسماء ، وعلى انهم ان حادوا
هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعى التغيير والتبديل ، أو انحرفوا عن هذا الا
وسنته ، فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته ، ومستوجبـ
لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته ، وبعداء من رحمته ، ومن شفاعة نبيه الـ
يوم القيامة لأمته ، وانهم خالعون لربقة الاسلام، وخارجون عن سنة الر
عليه السلام ، أعلنوا بهذا اعلانا تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية
مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضـاء لله وللـ
النبوية ، والامامة العلويه ، ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة الا
واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى
بالقلوب الخاشعه ، ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعه ، فى أن يمـ
خير هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم ، بدأ وختاما ، وأن يمنحهم بركـ
التى تصحبهم حالا ودواما لا رب غيره ، ولا خير الا خيره ، أشهد على
بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء ادريس أسعده الله وأكرمه ، وبـ
المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية » انتهى .

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين
هدية سلطانه وتوجه الى بلاده بجواب مرسله ، ولم يلبث أن رجعه سلـ
ثالثة ووجه معه هدية ورسالة ، وخاض القفر الى دار الخلافة ، فوصـل
بلاد تيكورارين وهناك اعترضته منيته فاعتل وهلك ، فأشخص أولوا الا

الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه ، فوصلوا بها الى حضرة **أمير المؤمنين** بمراكش، وقدموا اليه رسالتهم وهديتهم فتقبلها بقبول حسن ، وتم السرور وعظم الحبور ، واستقامت للمنصور الامور .

بعث المنصور رسوله بالدعوة الى آل سكية وكيفية ذلك

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبى العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لاجله ردهم المنصور الى صاحبهم مكرمين، وانتخب رسولا عارفا مجربا ممن لهم بصيرة بأحوال السودان فبعثه معهم عينا يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها ، وبعث معه رسالة الى السلطان اسحق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو ، من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذى بتغازى بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح الى أقطار السودان، وظيفا، بأن يجعل كل من يحمل منه شيئا من الواردين عليه مثقالا من الذهب العين لكل حمل ، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لان ذلك بحر لا ساحل له .

وكان المنصور لم يكاتبه فى ذلك حتى استفتى علماء ايالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر فى المعادن مطلقا انما هو للامام لا لغيره ، وأنه ليس لاحد أن يتصرف فى ذلك الا عن اذن السلطان أو نائبه ، وبعث اليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول، وكانت من انشاء العلامة الاديب مفتى الحضرة المراكشية المولى أبى مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسى ، لان كاتب الانشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى كان مريضا يومئذ ، ولما فرغ الشريف المذكور من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول فى مخاطبة اسحق سكية ولا كيف يمدحه ، وهل يتوغل فى المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير فى ذلك الى المنصور بما نصه : « أيدكم الله ونصر أعلامكم ان

مخاطبة هذا الرجل الذى هو فى مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تلعثم فيه لسانى ، ووقف عن خوض لجته بنانى ، لان النأى عن هذه المحجة قد مد بينى وبينها حجابا ، وأغلق فى وجهى بابا ، فلا آمن من أن أقتحم الوقوع فى تفريط أو افراط ، وخير الامور لو علمته الاوساط ، لكن لا سبيل الى معرفته الا بعد علم الطرفين ، والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ـ أيدكم الله ـ الصدر لمن هو به منى أقعد ، وتحاميت عقده لمن هو له أعقد ، أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم ، وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم، والا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقول القائل .

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه   لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور الى السلطان اسحق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل فى الجواب ، وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم اجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة ، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر الى السودان ، فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها، ولما فتح تيكورارين وتوات قوى عزمه على ذلك ، وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره ان شاء الله .

مفاوضات المنصور الملأ من اصحابه فى غزو آل سكية وما دار بينهم فى ذلك

قال الفشتالى رحمه الله : لما رجعت آرسال المنصور اليه من عند اسحق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بانه أمير ناحية ، والمنصور أمير ناحية ، وأنه لا تجب طاعته عليه ، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأى والمشورة فاجتمعوا ، وكان يوم اجتماعهم يوما مشهودا ، فقال لهم المنصور : « انى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو وبعث

الجيوش اليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية ، ولان بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الاسلام ويشتد ساعد كتيبته ، مع أن صاحب أمرهم والمتولى لسلطنتهم اليوم معزول عن الامارة شرعا ، إذ ليس بقرشى ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى » فلما نثل المنصور ما فى كنانته وأبدى ما فى خبيئته وعرض ما فى عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشىء ، فقال لهم : « أسكتم لستصوابا لرأيى أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لى ؟ » فاجاب كلهم بلسان واحد ورأى متفق : « ان ذلك رأى عن الصواب منحرف وانه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك، وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحا تقصر فيها الخطا ، وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلا ، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شىء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا ، وأيضا فان دولة المرابطين على نخامتها ، ودولة الموحدين على عظمها ، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحدمنهم لشىء من ذلك ، ولا تعرضوا لما هنالك ، وما ذاك الا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها ، وحسبنا أن نقتفى أثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون أعقل من الاول » فلما قضى أولئك الاقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم ، قال لهم المنصور : « ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمرى ، وفيلتم به رأيى فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندى ، أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق فى كل وقت ويخوضون فى احشائها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل ، وأما قولكم ان من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقابلة الافرنج ومن بذلك الساحل من الاروام ، والموحدون اقتفوا سبيلهم فى ذلك وزادوا بحرب ابن غانية ، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بنى عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليها

جملة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن الا الرماح والسيوف ، وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء ، وأيضا فان بلاد السودان أنفع من افريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لانه تعب كثير فى نفع قليل، فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل ، فانه كم ترك الاول للاخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم». فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما فى وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رأيه ، وقالوا له : «قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ولم تبق لاحد ما يقول ، وصدق من قال: «عقول الملوك ملوك العقول» . فانفصل الجمع على البعث الى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور فى رأيه عليه . قلت : وفى كلام المنصور أمران يحتاجان الى مزيد بيان الاول ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعنى بهم الذين أقاموا بأرض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الامير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لان ذلك كان بعد رجوعه الى الصحراء واستقراره بها واعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر ، الثانى ما قاله من أن البارود لم يكن فى تلك الدول الفارطة يعنى به لم يكن موجودا فيها بكثرة بحيث يستغنى به الجيش عن غيره ساعة القتال ، فلا يرد عليه أن ظهوره كان فى أوائل المائة السابعة لاول دولة بنى مرين كما مر اذ ظهوره فى تلك المدة كلا ظهور . والله تعالى أعلم بحقائق الامور .

استجازة المنصور لعلماء مصر رضى الله عنهم وتلمذه لهم

قالوا ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث الى علماء مصر يستجيزهم رغبة فى اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الاسد ، وممن أجازه: الامام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى الحسن البكرى رضى الله عنه ، ومن بعض فصول اجازته له قوله يمدح كتاب المنصور اليه ويثنى عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه : ولقد وصل الى المثل العديم المثال ، المزرى نظامه بعقود اللآل ، فاذا به السحر الا أنه الحلال ، ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن يمد الله كراما كاتبين فى زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله الى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه ، فما من خارق فى الامة الا وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه ، وأما ما شرفنى به من طلب الاجازة فالبيت والحديث له ، ولكن رب أب أرسل الى ابنه على يد عبده عطاء فقبله ، واليه بامره حمله ، وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم ، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العبد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الامر ، وكذلك مجاز أهل العصر اجازة عام بعام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولاناوتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه هو السبب فى تحصيل ذلك المرام وكتب تحريرا فى رابع عشر ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة ، محمد بن ابىالحسنالصديقى سبط آل الحسن » اه .

وممن استجازه المنصور أيضا من علماء مصر : الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصرى الشهير ببدر الدين القرافى صاحب «ذيل الديباج » فأجازه اجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله :

أجزت لمن تفضل واستجازا ... وبادر لاقتنا خير وحازا

وأبرز فى سلوك العلم حالا ... به من فضل مولانا يجازى

امـام كامـل غـوث البرايـا أمير المؤمنين حوى مجـازا
وذلك بعد تشريفى بأمـر وقصد للاجازة فاستجـازا
فبادرت امتثالا قـدر وسعـى ومقتفيا مناهج من أجـازا
وقد أبديت حقا لا محـالا بما صار الامام به مجـازا
بفاتحة وسنـة خير هـدى وسلسلة لمـن حـاز امتيـازا
بدار الهجرة العليـا امـام بما أبداه من فضل مجـازا
وأرجو منه يهدى لى دعـاء لما أرجوه من خير مجـازا
بخاتمـة تبلغنـى مرامـا بجنات أراها لى مفـازا
وأشياخـى يبلغهـم رضـاء ويوصلهم الى خير يجـازا

تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المامون وما وقع في ذلك

قالوا : وفى شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولد محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على اخوته خصوصا لانهم كانوا فى البيع الاولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسما لمادة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مراكش الى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي ليأتيه بولى عهده المذكور من فاس ، فتوافى القصد ان بتامسنا ، وباشر المنصو أخذ البيعة له بنفسه ، وحضر الاعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكري الذى هو مصحف عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه وهو من ذخائر الخلف وأحضر الصحيحان للشيخين ، وقرىء ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبدالعزيز الفشتالى، وبجنبه القاضي أبوالقاسم الشاطبى يفسر ما أشكل من لفظ الظهير .

ولما أخذ البيعة أخر أولاده الى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له ، ووقع فى رسالة السلطان زيدان لابى زكرياء بن عبد المنع الامام بذكر هذه البيعة فقال : « انى حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب

سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له الا أنا ، فانه رضي الله عنه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج اليه فيما نأمره به ونفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم لاجله الكراهية » اه .

ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلا من أولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في نفوسهم احن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن ، فعقد لابي فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائره وعقد لابي الحسن على مكناسة وما والاها ، وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لامر اقتضاه الحال ، فنقل زيدان الى مكناسة ، ونقل أبا الحسن الى تادلا ، ولم يزالوا على ذلك الى أن كان من أمرهم ما نذكره في محله ان شاء الله .

ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله



قالوا : وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له : الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان في ابتداء أمره حائكا فتلبس بالزهد والصلاح ، واعتقدته العامة ثم استحال أمره الى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه الى مراكش وانقطعت مادة فساده فلم تبكه أرض ولا سماء.

بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهي بنت الشيخ الاجل أبي العباس أحمد ابن عبد الله الوزكيتي الورززاتي من الصالحات حريصة على اقتناء المفاخر راغبة في فعل الخير ، قال في المنتقى: « وهي التي أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافا عظيمة وكان ذلك سنة خمس وتسعين وتسعمائة . قال : «وهي التي بنت جسر وادي أم الربيع وغير ذلك» اه

قلت: المرقوم على رخامة قبرها انها بنت جسرين بلفظ التثنية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستانا من بساتين قصورها وهي فى حال الوحم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما فى نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها الى الآن فيقولون : عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان ، فى اسجاع غير هذه . ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا والله تعالى أعلم .

بعث المنصور ببيلة الرخام الى جامع القرويين من فاس حرسها الله

قال ابن القاضى فى «المنتقى المقصور » : « ان المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة الى جامع القرويين من فاس مع كرسى من المرمر توضع عليه وزنهما معا مائة قنطار » قال : « وهى : الخصة التى تحت منار الجامع المذكور » وقال ابن القاضى المذكور فيما نقش برقبتها:

امام دار الهدى المنصور شيدنى ... بحر المكارم من أبناء عدنـــان

حزت المفاخر بالمنصور أجمعها ... ومن علاه سنام المجد أرسانــى

من جاء يشكو الظما يوما وقبلنى ... أغناه ماقد همى من صوب أجفانى

لا تنكرن وجود الدمع من فرح ... فالعين تدمع من افراط سلوان

واشرب هنيئا من السلسال لاحرج ... معين دمع جرى من فيض خلجانى

فخر السلاطين من أبناء فاطمـة ... أشاع صيتى الى أطراف عمـان

وقد جرت مقلتى تحكى سحائبها ... كف الخليفة من أبناء زيــدان

لا زال للدين والدنيا يسوسهما ... ما هيجت عاشقا ورق بأفنـــان

انشائى فى زمن التاريخ وافقـه ... للدين والاجر بحر الجود سوانى

وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وتسعمائة فى ذى الحجة منها

سافر المنصور الى فاس وبينما هو فى الطريق وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وان زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطوانى كمن لهم مع جماعة من الفرسان فى موضع فخرج النصارى باولادهم وحشمهم فحال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها ، وسر المنصور بهذا الخبر ، وأنشده فى ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما :

هذه سبتة تزف عروسا   نحو ناديك فى شباب قشيب
وهى بشرى وأنت كفؤ اللواتى   كافأت بعلها بفتح قريب

وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة فى اليوم الثانى من ذى القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك على الفرار بانفسهم فتركوها يبابا وذهبوا ، وفى ذلك يقول أبو العباس ابن القاضى :

يا أيها المنصور أبشر بالعلا   فالله أبلغ فى العدا المأمولا
أنضاكم سيفا لحتف عداته   وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم   من غير سيف لم يرى مسلولا
وأذيتم كيد الخبيث بهمة   وفتحتم دار العدا آصيلا
أكرم به من مالك بل صالح   أضحى لبارود العداة خليلا
لازال فى أنف الهدى شمماوفى   عين العلاء يشاكل التكحيلا

وأشار بقوله لبارود العداة خليلا الى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلا فانهم حفروا تحت قصبتها وملأوا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيلا تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصرانى منهم وأخبر المسلمين بذلك فنجاهم الله تعالى من مكيدة الوبال ، وكفى الله المؤمنين القتال، وقال فى ذلك أيضا الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالى شعرا ذكره صاحب « نشر المثانى » فانظره .

وكان فى زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة فى قتال العدو ومنهم : أولاد النقسيس التطوانيون ، ومنهم : أولاد

أبى الليف من أهل بلاد الهبط ، قال فى « المرآة » : « لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة على ما كان عليه،ومن شدة نكايته فى العدو الكافر الطنجى وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعى به الى المنصور فأمر برحيله الى فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم فى سجن ، فأقاموا بفاس مدة لا أدرى هل هى سنة أمأكثر الا أنى كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا اذ ذاك صغير ، ويعنى بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله » ، قال : « فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوما المقدم عمر لاخيه كبيره المقدم محمد : لو زرنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فان الناس كثيرا ما يقصدونه فى المهمات » فقال له : « لا أتحرك فقد غلب اليأس » فسار المقدم عمر وحده فلما وصل الى الشيخ قال له : « قنطتم » قال : « نعم ياسيدى » فقال له الشيخ : « غدا يخلى سبيلكم ان شاء الله » فرجع الى أخيه وأخبره ، فلما كان من الغد بعث اليهم القاضى أبو محمد عبد الواحد الحميدى فلما أتوه قال لهم:أبشروا بالسراح والرجوع الى الوطن ان شاء الله ، فانه قد قرىء الآن بين يدى السلطان بعض الغزوات التى ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها ، فقال السلطان أو غيره : « ترى هل بقى فى هذا الزمان من يماثلهم» فقالوا: قد بقى من يفعل فعلهم ، وها هم أولاد أبى الليف المغربون هنا يفعلون مثل ذلك » فقال السلطان سرحوهم الى بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا فى سبيل الله فرجعوا الى بلادهم وفعلوا الافاعيل فى عدو الدين الى أن استشهد المقدم محمد فى ربيع الثانى سنة اثنتين وألف » اهـ .

غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها اسحق سكية رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته فى غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقى المنصور يقدم رجلا ويؤخر أخرى الى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوى عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج اليه الجيش من آلة السفر ومهماته ، وأمر القواد أن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون اليه من ابل وخيل وبغال ، وان من أتى بجمل ضعيف يعاقب ، واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التى تحملها والبارود والرصاص والكور ، وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء ، وألف النجارون ذلك فى البر الى أن تألف ، ثم خلعوه وشدوه أحمالا ، واستمر الحال الى أن استوفى المنصور أمر الغزو فى ثلاث سنين ، ثم أمر باخراج المضارب والمبانى لوادى تانسيفت فخرجت الاحمال والاثقال من مراكش فى اليوم السادس عشر من ذى الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلا ورجلا وجملتها عشرون ألفا ، ومعهم من المعلمين البحرية والطبجية ألفان ، فالمجموع اثنان وعشرون ألفا ، وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة ، فاختار منهم من يعلم نجدته ويعرف كفايته ، وتخير من الابل كل بازل وكوماء ، ومن الخيل كل عتيق وجرداء ، ثم نهضوا فى زى عظيم وهيئة لم ير مثلها ، وذلك فى محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وكتب المنصور الى قاضى تنبكتو الفقيه العلامة أبى حفص عمر بن الشيخ محمود بن عمر اقيت الصنهاجى يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة .

ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوى ، ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافى فقطعوها فى مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان ، فأراحوا بها أياما ، ثم صاروا

قاصدين دار اسحق سكية ، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم ، وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال : أنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل .

وقال الفشتالى : ولم يقنع بالجيوش التى جمع حتى أضاف اليها أشياخ السحرة وأهل النفث فى العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنا منه أن ذلك يغنيه شيئا، وهيهات، ويرحم الله أبا تمام اذ قال فيما يقرب من هذا الحال :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الارماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الابل وصبروا من الضحى الى العصر، وكانت سلاحهم انما هى الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأ ، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الادبار . وحق عليهم البوار ، وحكمت فى رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن اخوانكم فى الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون فى كل وجه ، وفر اسحق فى شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه ، وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الاموال والمتاع ، وكان ذلك منتصف جمدى الاولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، ويقال : ان جؤذرا لم يدخل مدينة كاغو وانما تحصن بها اسحق فحاصره جؤذر فيها ، وكتب الى المنصور بخبر الفتح وبعث اليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك، وامتدت العساكر المنصورة فى بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبى وتغنم الى أن راسل اسحق الباشا جؤذرا فى تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة فأجابه الى ذلك على مشورة المنصور وامضائه اياه، ثم كتب الى المنصور

بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الارض فاتفق رأى الامراء على الرجوع والاقامة بتنبكتو الى أن يأتى جواب المنصور، فرجعوا وأخذ جؤذر فى انشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها فى النيل، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرا خفيفا وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا، وهو أخو جؤذر وقلده أمر العساكر كلها، وعزل جؤذرا عنها وأمر محمودا أن يبقيه معه، وكتب الى أمراء العسكر يعاتبهم ويوبخهم على ما فعلوه مع اسحق من الصلح ، ويؤكد عليهم فى الرجوع الى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل الى العدوة الاخرى ، وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر فى زمان الحر فى وقت لا يقدر على الحركة فيه الا القطا الكدرى وقطع القفر فى خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الالف فاراح بها ثلاثا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا فى النيل وسار السواد الاعظم فى البر الى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك اسحق سكية ، وكان اسحق لما رجعت عنه العساكر الى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت ، فلما بلغه رجوع العساكر الى كاغو قصدهم فى جموعه ، ولما التقى الجمعان لم يكن الا مقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابل فى الجو وهدير الطبول ، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون الى أن غشيهم ظلام الليل ورجعوا بالغنائم والسبى فاستراحوا ثلاثا ، ثم أمر محمود أخاه جؤذرا أن يقيم بمدينة كاغو عامرا لها ، ويترك معه عددا من العسكر يكون ردءا لهم ، وسار هو فى اتباع اسحق الى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر فى فل من قومه فعبر النيل الى العدوة الاخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره فى السفن وسار خلفه الى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل اسحق القفر فهلك فيه ، ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذى كان ينازعه فى الملك فانه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف الى محمود باشا فنهض اليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه ، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كليا ،

وكتب بخبر الفتح الى المنصور .

ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيدا من الاعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب ، وأقام مهرجانا عظيما بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الاسواق وأخرجت المدافع بالنفـــط وتسابقت الخيول ، وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم ، وأجازهم بما تحدث الناس به دهرا ، وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت الى جميع الآفاق ، وكان مما قيل فى ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فقال :

جيش الصباح على الدجا متدفـــق ... فبياض ذالسواد ذلـك يمحـــق
وكأنه رايـات عسكـرك التـــى ... طلعت على السودان بيضا تخفـــق
لاحـت وأفقهـم ليـال كلـــه ... كعمود صبح فى الدجا يتألـــق
نشرت لتطوى منه ليلا دامســـا ... أضحى بسيفك ذى الفقار يمـــزق
أرسلتهن جوائحـا وجوارحـــا ... فى كل مخلبها غـــراب ينعـــق
وسرت فكـان دليلهـــن اليهـــم ... مشحوذ عزمك والسـنان الازرق
لهى الليالى قد جـلى أحلاكهـــا ... نور النبوة من جبينك يشـــرق
صعقت بهن رعود نارك صعقـــة ... رجت لصيحتها العراق وجلـــق
سحقا لاسحق الشقىوحزبـــه ... فلقد غدا بالسيف وهو مطـــوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفـــه ... من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق
جيش أواخره ببابك سيلـــه ... عرم وأوله بكاغـــو محـــدق
لم يشعروا الا وأسوار الـــردى ... ضربت عليهم من قناك وخنـــدق
كتب الاله على عداتـــك أنهـــم ... قنص لسهمك غربوا أو شرقـــوا
ضلت ملوك ساجلوك على العـــلا ... سفها وشأوك فى العلا لا يلحـــق
أن يشبهوك ولا شبيه يرى لكـــم ... فى الخلق أين من اللجين الزئبـق
بشر ملوك الارض أنـك فاتـــح ... بالمشرفى على الـــولا ما غلقـــوا
وبقاصل لك ذى الفقار مفـــرق ... ما جمعوه وجامع ما فرقـــوا
دامت طيور السعد وهى غـــوارد ... بالمشتهى لك والمسرة تنطـــق

ما دام أصل علاك فى صحف الثنا   أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورى بهما هذا الشاعر وسيأتى الكلام عليهما . وكان محمود باشا لما استوسق له الامر هنالك بعث بنصف جيشه الى المنصور مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لا يحصى ، من ذلك : ألف ومائتان من متخير الرقيق الجوارى والغلمان ، وأربعون حملا من التبر ، وأربعة سروج ذهبا خالصا ، وأحمال كثيرة من اليانبور وقطوط الغالية وغير ذلك ، ولما وافت المنصور سر بذلك سرورا عظيما وأمر بعمل المفرحات فى بلاد المغرب وبتزيين الاسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام، ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر ، وانتظمت الممالك السودانية فى سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصرقال الفشتالى: فكلمة المنصور نافدةفيمابين بلاد النوبة الى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله ،والله يؤتى ملكه من يشاء ، ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل اليه من التبر ما يعيى الحاسبين ، ويحير الناظرين ، حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى ، والدينار الوافى، وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلى وشبه ذلك ولاجل هذا لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى أيامه والامور كلها بيد الله .

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض ما ثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره . وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف ، ومن المستفيض انها ريئت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت : « غفرلى ، بسبب انى كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع فى الاذان فرددت على ثيابى اعظاما لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لى ذلك فغفر لى » .

وفى سنة احدى وألف أتى بالفيلة من بلاد السودان الى المنصور، وكان يوم دخولها لمراكش يوما مشهودا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت الى فاس فى رمضان سنة سبع وألف . قال فى «نشر المثانى» : كان دخول الفيل الى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف وبعث المنصور مع الفيل الى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس فى ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس . »

قال بعضهم : « وبسبب دخول هذه الفيلة الى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لان أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع ، فشاعت منهم فى بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب ، وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم ، فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ، ومتوقف ، والعلم فيها عند الله سبحانه » قاله اليفرنى .

قلت : من تأمل أدنى تأمل فى قواعد الشريعة وآدابها علم يقينا أن تناول هذه العشبة حرام ، لانها من الخبائث التى حرمها الله تعالى على هذه الامة المطهرة ، وبذلك وصفها فى الكتب السالفة اذ قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم

بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » .

وبسط هذا المقام : ان تعلم أن الله تعالى اختار هذه الامة من بين سائر الامم قال تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها ، قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التى هى من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد ، ثم اذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ في الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن ، واجتناب كل خبيث أمكن ، فشرع أولا الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن. وحظر من مقاربة الصلاة وما هو فى معناها حال الخلو عنها ، ثم شرع ثانيا الطهارة الصغرى المتعلقة باطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لانها تبرز في غالب الاحوال فيعلق بها من الاقذار مالا يعلق بغيرها ، وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة عند عروض كل حدث مستقذر حتى الريح والسبب الداعى الى خروجه ، ثم ندبه الى استعمالها عند القيام الى كل صلاة من الصلوات الخمس.

ثم انا اذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعى غاية النظافة وتنفى كل قذر وان قل ، فشرع الغسل فى أعضاء الوضوء مكررا ، وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعا لما يعلق به من الغبار ، وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيف كالمضمضة والاستنشاق ثلاثا تطيبا للنكهة ، وشرع مسح الاذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين ازالة لما بداخلهما من تلك الفضلة، مع أن الحى ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة، أوليس فى هذا دليل واضح على أن الحكمة فى هذا كله انما هو المبالغة فى النظافة وتطييب الرائحة والنكهة اذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب، وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيدا عن القذر بكل وجه ، ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام الى كل صلاة وقال : لولا أن أشق على أمتى لامرتهم بالسواك عند كل صلاة » كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر

وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة فم المؤمن ونكهته حتى فى حق الصائم "ل
« خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك » هذا كله فى حال الصلاة .

وأما خارجها فقد علم من الشرع علما ضروريا أن العبد مطلوب بالمحا
على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له . و
هذا المعنى: ما حرم الله تعالى على هذه الامة من تناول المستقذرات كالميتة وا
وسائر النجاسات اذ علة حرمة الاشياء وتناولها اما كونها مستقـ
كالنجاسات اجماعا ، وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعـ
رضى الله عنه ، أومضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعـ
الاعضاء منه ، أو محترمة : اما لذاتها ، كالادمى ، أو لكونها ملكا للغير
ظاهر . فالشارع له غرض أكيد فى اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها مـ
المستخبثات ، وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعم
فى حوائطهم فاذا حضرت الجمعة أتوا الى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم ا
صلى الله عليه وسلم بالاغتسال عند كل جمعة ، ثم منع كل من تلبس برائ
كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها ، وحبب الى النبى صلى الله
وسلم من دنيانا النساء والطيب ، وندب أمته الى استعماله فى المشاهد العامة
الجمع والاعياد ونحوها ، وخصال الفطرة انما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاي
تأملها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه » دفـ
للسرف والخيلاء ، ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والاقذار الى غير هذ
لو استقصى لطال ، ودل دلالة قطعية على أن المطلوب من العبد أن يكون
طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانبا لكل خبيث مستقـ
وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس ، وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر
من رائحة أفواه شربة الدخان ، ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين
تابغ ، وهذا النتن من أقبح العيوب فى نظر الشرع حتى انه جعل الخيار
الزوجين اذا كان صاحبه أبخر ، فاذا لانشك أن استعمال هذه العشبة ا
فى الفم أو الانف من أعظم المحظورات لانها تصدم غرضا كبيرا من أغـ
الشارع وتضاده وتنفيه ، وأقول لو كان نتنها يعلق بعضو من الاعضاء غير

لكان هينا لكنه يعلق بالفم والانف اللذين وضعهما الحكيم العليم فى وسط الوجه الذى هو أشرف الاعضاء ، فأى مضمضة وأى استنشاق وأى سواك يزيل ذلك النتن الذى يرسخ فى أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخا لا يماثله شيء.

ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا: ان فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة هذا الى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى أنه اذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يبالى بما يصدر منه ، ومن دخول الشك فى صيامه لان بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمكث فى حلقه الى طلوع الفجر وما بعده ، لان جلهم اذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم ، وبالجملة ، فلا يستعمل ذلك الا من لا خلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين وهو قادح فى الشهادة والامامة والله تعالى الموفق بمنه .

نكبة الفقيه ابى العباس احمد بابا السودانى وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والائمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتى سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم الى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الاول ، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم ، وربما وشى اليه بهم ، فكتب الى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم الى مراكش ، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد بن عمر بن

محمد آقيت المدعو : بابا ، صاحب «تكميل الديباج» وغيره من التآليف . وكان فيها أيضا الفقيه القاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما ، وحملوا مصفدين فى الحديد الى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم .

قال فى «بذل المناصحة» : « سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول : أنا أقل عشيرتى كتبا وقد نهب لى ست عشرة مائة مجلد » وكان القبض عليهم فى أواخر المحرم سنة اثنتين وألف ، ووصلوا الى مراكش فى أول رمضان من السنة المذكورة ، واستقروا مع عيالهم فى حكم الثقاف الى أن انصرم أمد المحنة ، فسرحوا يوم الاحد الحادى والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك .

ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بنى العباس ومن يتشبه بهم ، فقال الشيخ : « ان الله تعالى يقول «وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب » وأنت قد تشبهت برب الارباب فان كانت لك حاجة فى الكلام فانزل الينا وارفع عنا الحجاب » فنزل المنصور ورفعت الاستار ، فقال له الشيخ : « أى حاجة لك فى نهب متاعى وتضييع كتبى وتصفيدى من تنبكتو الى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقى ؟ » فقال له المنصور : « أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم فى بلادكم من أعيانها فان أذعنتم أذعن غيركم » فقال الشيخ أبو العباس : « فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فانهم أقرب اليك منا » فقال المنصور : « قال النبى صلى الله عليه وسلم: «اتركوا الترك ما تركوكم» فامتثلنا الحديث »فقال أبو العباس: «ذاك زمان ، وبعده قال ابن عباس : « لاتتركوا الترك وان تركوكم » فسكت المنصور وانفض المجلس .

ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس اليه للاخذ عنه ، ولم يزل بمراكش الى أن مات المنصور لانه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش ، ولما توفى أذن ابنه زيدان لآل آقيت فى الرجوع الى

بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش ، وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق الى رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله فى العود اليها ، وله فى ذلك شعر على طريقة الفقهاء . ولما خرج من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى : «ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد» على ما جرت به العادة من قراءتها عندوداع المسافر فيرجع سالما ، فانتزع الشيخ ابو العباس يده بسرعة وقال: «لاردنى الله الى هذا المعاد ولا رجعنى الى هذه البلاد » ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها الى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله .

تتمـــة

قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الاخذ بدين الاسلام من لدن قديم . وانهم من أحسن الامم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة ، وهذا الامر شائع فى جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت ، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى بلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقا ، وجلب القطائع الكثيرة منهم فى كل سنة وبيعهم فى أسواق المغرب حاضرة وبادية ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هـــو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية ، وهذا لعمر الله من أفحـــش المناكر وأعظمها فى الدين ، اذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاســـلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انما هو الاسلام ، والحكم للغالب ، ولـــو فرضنا أن لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بان المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين . والاصل فى نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ، ومدعى خلاف الحرية مدع لخلاف الاصل ، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم فى الباعة مطلقا مـــن

الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بما ليس فيها ، وفى باعة الرقيق خصوصا مما هو أكثر من ذلك ، كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم انما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين ، والزمان كما علمت وأهله كما ترى، ولايعتمد أيضا على قول ذلك العبد نفسه أو الامة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الاغراض والاحوال فى ذلك ، فان البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون الا بما لا يقدح فى صحة بيعهم ، وقد يكون للعبد أو الامة غرض فى الخروج عن ملك من هو بيده بأى وجه كان ، فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كى ينفذ بيعه عاجلا الى غير ذلك من الاغراض ، وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم ، وقبل اليوم ، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ، ويسرقونهم من الاماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم ، وان فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب فى اغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون ، وانما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع ، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل ، وكيف يجوز له التسرى بانائهم ، وفى ذلك ما فيه من الاقدام على فرج مشكوك .

وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه : فى كتاب « الحلال والحرام» من «أحياء علوم الدين» ما نصه : اعلم أن كل من قدم اليك طعاما أو هدية أو أردت ان تشترى منه او تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه ، وليس لك أيضا أن تترك البحث فتأخذ كل مالا تتيقن تحريمه ، بل السؤال واجب مرة ، وحرام مرة ، ومندوب مرة ، ومكروه مرة ، فلا بد من تفصيله والقول الشافى فيه : هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة» ثم أطال رضى الله عنه فى تقرير ذلك ، وصرح بأن البائع اذا كان متهما على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله . فاذا كان هذا فى الاموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الابضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله .

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا فى تقييده الموضوع فى هذه المسئلة،

سى «بمعراج الصعود» تفصيلا حتم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان
موشى وبعض فلان وغيرهم : وقال : أن كل من كان من هؤلاء القبائل
ز استرقاقه » . وكذلك ذكر ولى الدين ابن خلدون : « ان وراء النيل
من السودان يقال لهم لملم » قال : « وهم كفار ويكتوون فى وجوههم
داغهم » قال : « وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم
ر فيجلبونهم الى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم فى الجنوب
ن يعتبر » الى آخر كلامه ، لكن هذا التفصيل الذى ذكره الشيخ أبو
ـ انما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم
غيرهم ، فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض
.ان مهامه فيح وقفار لا يعمرها الا الريح ، فمن الذى يحقق لهم ذلك ،
لنا انه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم ، وأيضا فمن لنا بأن أولئك
، لا زالوا على كفرهم الى الا ن على أن الناس اليوم لا يلتفتون الى ذلك
، ومهما رأى أحدهم العبد أو الامة يسمسر فى السوق الا ويقدم على
غافلا عن هذا كله لايسأل الا عن عيوب بدنه لافرق فى ذلك بين أسود
ض وغيرهما ، بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون
الاحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم فى الاسواق جهارا من
كير ولا امتعاض للدين ، وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم
منا ومسمع ، وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فانا لله وانا اليه راجعون
دهينا به فى ديننا .

فالحاصل أنه لما كان الاصل فى الناس هو الحرية كما قلنا ، وعلم تواترا
ـ بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون ، واستفاض عن أهل
وغيرهم انهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم
عدوانا ، ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم انما هم من لا
لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف فى أن الاقدام على شراء هذا الصنف
فى الشرع والمقدم عليه مخاطر فى دينه ، وأما وضع يد الجالبين لهم
لا تكفى شرعا فى جواز الاقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة

بما احتف بها من القرائن المكذبة لها، وليستفت المرء قلبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وان أفتوك » فانه متى رجع الى قلبه فى هذه المعضلة الا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال ، ثم نتنزل عن هذا كله ونقول : لو لم يكن فى ذلك الا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان فى هـــذه الامور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذى هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الامام مالك رضى الله عنه ما يقتضى وجوب التخلى عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين ، فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد، لحسم مادة هذا الفساد ، فان سبب الاسترقاق الشرعى الذى كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح مفقود اليوم ، وهو السبى الناشىء عن الجهاد المقصود به اعلاء كلمة الله تعالى ، وسوق الناس الى دينه الذى اصطفاه لعباده ، هذا هو ديننا الذى شرعه لنا نبينا صلى الله عليه وسلم وخلافه خلاف الديـن وغيره غير المشروع والتوفيق انما هو بيد الله « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله

قال فى « مناهل الصفا » : كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لاهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم، فان كلا من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيا به ذكره ، ولم يكن لاهل البيت فى ذلك المعنى شىء تزداد به حظوتهم مع أنهم أحق الناس بالمجد والسؤدد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لان البناء كما قيل :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيـــــان
ان البنـــاء اذا تعـاظم شأنـه أضحى يدل على عظيم الشــأن

قلت : هذا اعتذار بارد كما لا يخفى .

ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة ، واتصل العمل فيه الى سنة اثنتين وألف . ولم يتخلل ذلك فترة . وحشد له الصناع حتى من بـــلاد الافرنجة، فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم ،وجلب لــه الرخام من بلاد الروم ، فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن على ما قيل .

وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله « في المناهل »

وأما جبصه وجيره وباقي أنقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها أن فلانا دفع صاعا من جير حمله من من تبكتو وظف عليه في غمار الناس .

وكان المنصور مع ذلك يحسن الى الاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤن أولادهم كي لا تتشوف نفوسهم وتتشعب أفكارهم .

وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئـــة واحتف بها مصانع أخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك أن هذا البديع من أحسن المباني وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسي ذكر غمدان ، ويبخس الزهراء والزاهره، ويزري بقباب الشام واهرام القاهرة ، وفيه من الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكـــر ويدهش النظر وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الذائب ومود بالنضار الصافـــي وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة ، وجعل في أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر ، أو برد موشى من عمل صنعاء وتستر ، وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيه المحاسن ، وأجرى بين قبابه ماء غير آسن ، وبالجملة فان هذا البديع كان من المباني المتناهية البهاء والاشراق

المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنة الدنيا وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف :

كل قصر بعد البديع يـــذم — فيه طاب المجنى وطاب المشـــم
منظر رائق ومـــاء نميـــر — وثرى عاطر وقصر أشـــم
ان مراكشا به قد تباهـــت — مفخرا فهى للعلا الدهر تسمـو

وبه من الاشعار المرقومة فى الاستار ، والابيات المنقوشة فى الجهات ، على الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول ، وعلى كل قبة ما يناسبها ، وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بثمالة من ذلك الحوض ونخوض فى بحـــار تلك البدائع بعض الخوض ، اذ فى ذلك عبرة لمن اعتبر ، وترويـــح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غبر ، فمن ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية لان فيها خمسين ذراعا بالعمل من انشاء الكاتب البليغ أبى فارس عبد العزيز الفشتالى على لسان القبة المذكورة .

سموت فخر البدر دونى وانحطا — وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا
وصغت من الاكليل تاجا لمفرقـــى — ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنهـــا — نثير جمان قد تتبعتـه لقطـــا
وعديت عن زهر النجوم لاننـــى — جعلت على كيوان رحلى منحطـــا
وأجريت من فيض السماحة والندى — خليجا على نهر المجرة قد غطـــا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت — اليه وفود البحر تغرف ما أنطـــا
ينضنض ما بين الغروس كأنـــه — وقد رقرقت حصباؤه حية رقطـــا
حواليه من دوح الرياض خرائـد — وغيد تجر من خمائلها مرطـــا
اذا أرسلت لدن الفروع وفتحـت — جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم اذا ســـرى — كما مال نشوان تشرب اسفنطـــا
يشق رياضا جادها الجود والندى — سواء لديها الغيث أسكب أم أبطـــا
وسالت بسلسال اللجين حياضـــه — بحار غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسط وسطاه دميـــة — هى الشمس لاتخشى كسوفا ولاغمطا

حكت وحباب الماء فى جنباتهـــا ... سنا البدر حل من نجوم السماوسطا
اذا غازلتها الشمس ألقى شعاعهـا ... على جسمها الفضى نهرا بها لطـا
توسمت فيهـا من صفاء أديمهـا ... نقوشا كأن المسك ينقطها نقطـا
اذا اتسقت بيض القباب قـــلادة ... فانى لها فى الحسن درتها الوسطى
تكنفنى بيض الدمـــى فكأنهـا ... عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريهـا ... وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
سمت صعدا تيجانهـا فتكســرت ... قوارير أفلاك السماء بها ضغطـا
فيالك شأوا بالسعادة آهـــلا ... بأكنافه رحل العلا والهدى حطـا
وكعبة مجد شادها العز فانبـــرت ... تطوف بمغناها امانى الورى شوطا
ومسرح غزلان الصريم كناسهـا ... حنايا قباب لا الكثيب ولا السقطـا
فلكن به ما طاب لا الاثل والخمطا ... ووسدن فيه الوشى لاالسدروالارطا
ثراه من المسك الفتيت مدبـــر ... اذا مازجته السحب عادبها خلطـا
وان باكرته نسمة ينسرى بهـا ... الى كل أنف عرف عنبره قسطـا
أقرت له الزهراء والخلد وانثنت ... أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
جناب رواق المجد فيه مطنـــب ... على خيرمن يعزى لخيرالورى سبطا
امام يسير الدهر تحت لوائـــه ... وترسى سفائن العلا حيثما حطـا
وفتاح أقطار البـــلاد بفيلـــق ... يفلق هامات العدا بالظبى خبطـا
تطلع من خرصانه الشهب فانثنت ... ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا
كتائب نصران جرت للممـــة ... جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطـا
اذا ما عقـــدن راية علويـــة ... جعلن ضمان الفتح فى عقدها شرطا
فما للسما تلك الاهلة انمـــا ... سنابكها أبقت مثالا بها خطـا
يطاوع أيدى المعلوات عنانهـا ... فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا
يد لامير المؤمنيـــن بكفهـا ... زمام يقود الروم والفرس والقبطا
أدار جدارا للعـــلا وسرادقـا ... يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال أيضا مما كتب بداخل القبة المذكورة :

جمال بدائعى سحر العيونـــا ... ورونق منظرى بهر الجفونـــا

وقد حسنت بقوسي واستطـــارت … سنا يعشي عيـــون الناظرينـــا
وأطلع سمكي الاعلى نجوما … ثواقب لا تغـور الدهـر حينـــا
وجوى من دخان الند ألقـــى … على أرضى الغياهب والدجونـــا
علوت دوائر الافلاك سبعـــا … لذاك الدهر ما ألفت سكونـــا
فصغت من الاهلة والحنايـــا … آساور والخلاخل والبرينـــا
تكنفنى حياض مائحـــات … أمامى والشمائل واليمينـــا
يقيد حسنها الطرف انفساحـــا … ويجرى الفلك فيها والسفينـــا
تدافع نهرها نحوى فلمـــا … عـلاه البحر فى غـدا دفينـا
وقد نشر الحباب على سماهـــا … لآلى تزدرى العقـد الثمينا
فخرت وحق لى لما اجتبانـــى … لمجلسه أمير المؤمنينـــا
هو المنصور حائز خصل سبـــق … وبانى المجد بنيانا مكينـــا
وليث وغى اذا زأر امتعاضـــا … يروع زئيره هندا وصينـــا
اذا أمت كتائبه الاعـــادى … بعثن برعبه جيشا كمينـا
يدير عليهم من كل حـــرب … تدقهم رحى أو منجنـونـا
امام بالمغارب لاح شمســـا … بها الشرق اكتسى نورا مبينـــا
بقيت بذى القصور الغر بـــدرا … تلـوح بأفقهن مـدى السنينـا
تحف بكـم عواكف عنـد بـابى … ملائكة كرام كاتبينـــا
لك البشرى أمير المؤمنيـن ادـــ … خلوها مع سلام آمنينـــا

وقال أيضا مما كتب فى بهوها بمرمر أسود فى أبيض :

لله بهـــو عز مـــه نظيـــر … لما غدا كالروض وهـــو نضيـــر
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد … قد نضدتها فى النحور الحور
فكأنها والتبر ســـال خلالهـــا … وشى وفضة تربها كافـــور
وكأن أرض قراره ديباجـــة … قد زان حسن طرازها تشجيـــر
واذا تصاعد نده نـــوأ ففى … أنماطه نور به ممطـــور
شأو القصور قصورها عن وصفـه … سيان فيه خورنق وسديـــر
فاذا أجلت اللحظ فى جنباتـــه … يرتد وهـــو بحسنـه محســـور

وكأن موج البركتين أمامـــه — حركات سحب صافحته دبــور
صفت بضفتها تماثل فضـة — ملك النفوس بحسنها تصويـر
فتدير من صفو الزلال معلـلا — يسرى الى الارواح منه سـرور
ما بين آساد يهيج زئيرهـا — وأساود يعلو لهن صفيـر
ودحت من الانهار أرض زجاجـة — وأظلها فلك يضىء منيـر
راقت فمن حصبائها وفواقـع — يطفو عليها اللؤلؤ المنثـور
ياحسنه من مصنع فبهـاؤه — باهى نجوم الافق وهى تنـور
وكأنما زهر الرياض بجنبـه — حيث التفت كواكب وبـدور
ولدسته الاسمى تخير رصفـه — فخر الورى وامامها المنصـور
ملك أناف على الفراقد رتبـة — وأقله فوق السماك سريـر
قطب الخلافة تاج مفرق دولـة — رميت بجحفلها اللهام الكـور
وجرى الى أقصى العراق لرعبهـا — جشى على جسر الفرات عبـور
نجل النبى ابن الوصى سليل مـن — حقن الدماء وعف وهو قديـر
بحر الندى لكنه متمـوج — سيف العلا لكنه مطـرور
طـود يخف لحلمـه ووقـاره — ولجيشه يوم النزال ثبيـر
دامت معاليـه ودام ومجـده — طوق على جيد العلا مـزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائـر — يغدو عليه بها مسا وبكـور
ما زال منزل سعده يرتـاده — نصر يرف لواؤه المنشـور
وجرت به مرحا جياد مسرة — وأدار كأس الانس فيـه سمير

وقال بعض الكتاب مما نقش فى عضادتى باب القبة الخمسينية المذكورة

يا ناظرا بالله قف وتأمـل — وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل — السر فى السكان لا فى المنـزل

وقال بعض الكتاب ايضا مما طرزت به الاستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي الاربع من القبة الخمسينية وتسمى هذه الاستار عند أهـل المغرب بالحائطى ففى الجهة الاولى :

متع جفونك فى بديع لباسى وأدر على حسنى حميا الكاس
هذى الربا والروض من جرعائها لم تغتذى بالعارض البجاس
انى لروض أن يروق بهاؤه مثلى وان يجرى على مقياسى
فالروض تغشاه السوام وانما تأوى الى كنفى ظباء كناس

وفى الجهة الثانية :

من كل حسنا كالقضيب اذا انثنى تزرى بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبى ونظرت من شزر الى الكناس
وجررت ذيلى بالمجرة عابثا فخرا بمخترعى أبى العباس
ما نيط مثلى فى القباب ولا ازدهت بفتى سواه مراتب وكراس

وفى الجهة الثالثة :

ملك تقاصرت الملوك لعزه ورماهم بالذل والاتعاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة ليث الحروب مسعر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها قطب الجمال أخو الندى والباس
ملك اذا وافى البلاد تأرجت منه الوهاد بعاطر الانفاس

وفى الجهة الرابعة :

واذا تطلع بدره من هالة يعشى سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلت كلها أبهى من الاعياد والاعراس
لا زال للمجد السنى يشده ويقيم مبناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وكللت درر الندى فى جيده المياس

وقال ابو فارس الفشتالى مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعه على القبة الخضراء من بديع المنصور ، وكان انشأها فى جمدى الاولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة :

باكر لدى من السرور كؤسا وأرض النديم أهله وشموسا
واعرج على غرفى المنيف سماؤها تلق الفراقد فى حماى جلوسا
واذا طلعت بأوجها قمر العلا لا ترتضى غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها لما اجتلت منى على بسط الرياض عروسا

واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما ... وردا تخير من بديعى خيسا
ملك أرى كل الملوك ممالكا ... لعلاه والدنيا عليه حبيسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة ... تلقى براياتها طلائع عيسا

وقال ايضا مما كتب فى بعض المبانى البديعية :

معانى الحسن تظهر فى المغانى ... ظهور السحر فى حدق الحسان
مشابه فى صفات الحسن أضحت ... تمت بها المغانى للغوانى
بكل عمود صبح من لجين ... تكون فى استقامة خوط بان
مفصلة القدود مثلثات ... مواصلة العناق من الـدان
تردت سابرى الحسن يزرى ... بحسن السابرى الخسروانى
وتعطو الخيزرانة من حماها ... بسالفة القطيع البرهمانى
لمجدك تنتمى لكن نماها ... الى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذى يزن ويعنو ... لها غمدان فى أرض اليمانى
غدت حرما ولكن حل فيها ... لو فدكم الامان مع الامانى
مبان بالخلافة آهلات ... بها يتلو الهدى السبع المثانى
هى الدنيا وساكنها امام ... لاهل الارض من قاص ودانى
قصور مالها فى الارض شبه ... وما فى المجد للمنصور ثانى

وقال مما نقش فى بعض الابواب :

هذى وفود السعد نحوى ترتمى ... وطلائع البشرى لبابى تنتمى
وسمت الى عفاة عرفك مثل ما ... يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بمصراعى السعود بشائرا ... لاحت على الشرفات مثل الانجم
وأوان صنعى أن تقول ولا تبل ... بديع أحمد جنة المتنعم

وقال الفشتالى لما عرضت عليه هذه الابيات استحسنها الا أنه كره لفظة جنة وتغير منها كثيرا ، وقال الوزير الاديب أبو الحسن على بن منصور الشيظمى مما كتب على مباح قبة الزجاج :

ان شئت تاريخ اكمال البديع فقل ... ايوان أحمد ايوان السعادات

وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد ابواب البديع :

باب أتى كبراعـــة استهـــلال وكأنما القصر القصيد التـــالى
ولذاك سمى بالبديع وجاء بـــال اغـراق والتجنيس والايغـــال
وأتى التمام فقلت فى تاريخـــه بيتـا بـلا عقـد ولا اشكـــال
صرح على تقوى من الله ابتنـــى فى طالع للسعد والاقبـــال

وقال أيضا فى تمام البديع مهنئا :

يـا مليكـا ملكـه يمن ملـــك كطلوع الفجر من بعـد الحلـك
تم هذا القصر فاسكنه عـلى حسن حال بدوام الملك لـــك

وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف ، وفى تاريخه يقـول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع :

الحسن لفظ وهذا القصر معنـــاه ياما أميلـح مـرآه وأبهـــاه
فهو البديع الذى راقت بدائعـــه وطابق اسم له فيه مسمــــاه
صرح أقيمت على التقوى قواعـده ودل منه على التاريخ معنـــاه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكـــلاه تاريخه من تمام قل هو الله

قال فى نفح الطيب : « اخترع المنصور من المصانع ثلاثـة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن ، وهى : البديـــع ، والمسرة ، والمشتهى ؟ وفيهما يقول المصور موريـــا :

بستان حسنك أبدعت زهراتـــه ولكم نهيت القلب عنه فما انتهـــى
وقوام غصنك بالمسرة ينثنـــى يا حسن رمـان بـه للمشتهى » اهـ

قال اليفرنى : والذى ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبـــار المغرب ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذارى الاندلسى حسبما رأيته فى السفر الثانى منه : « أن أول من أنشأ المسرة التى بظاهر جنان الصالحـــة عبد المؤمن بن على كبير الموحدين » قال : « وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة » .

قال ابن اليسع : « وماخرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش » اه ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها ، وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها ، وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيرا وبنوه بقدره ، وفى ذلك يقول أبو فارس الفشتالى :

هذا البديع يعز شبه بدائع ... أبدعتهن به فجاء غريبا
أضحى الغزالة حسنه حسدا له ... أبدى عليها للاصيل شحوبا
وانقضت الزهر المنيرة اذ رأت ... زهر الرياض به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا ... أنجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت فى كل الفخار لغاية ... أدركتهن وما مسست لغوبا
فانعم بملكك دام فيه مؤبدا ... تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطريز حلته صنع مهرجانا عظيما ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد ، وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل ذلك ، وكان ممن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح فى الوقت فقال له المنصور مباسطا : «كيف رأيت دارنا هذه يافلان؟» فقال له : « اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب » فوجم لها المنصور وتطير منها . وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور فالله أعلم .

قال اليفرنى : وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى اسمعيل ابن الشريف فانه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه ، وفرق ما كان به من جموع الانس ، وعاد حصيدا كأن لم يغن بالامس، حتى صار مرعى للكلاب والمواشى ووكرا للصدى والبوم ، وحق على الله أن لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه، ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شىء من أنقاض البديع ، ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخى الاندلس: أن الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر، وهى من عجائب الدنيا ، مر عليها فى أيام المنصور بعض أهل البصائر وهى فى نهاية

العمران والازدهاء بسكانها ، فقال : « يادار فيك من كل دار فجعل الله منك فى كل دار » قال : « فضرب الدهر ضرباته وسلط عليها أيدى العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها الى العراق .

قال اليفرنى : ولما دخلت البديع مقفلى من الرحلة ورأيت ما هالنى أنشدت أبياتا أنشدها الشيخ محيى الدين بن عربى فى كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع — وما أن بها من ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب — فتصمت أحيانا وحينا ترجع
فخاطبت منها طائرا متفردا — له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى — فقال على دهر مضى ليس يرجع

وأنشدت ما أنشده ابن الابار فى تحفة القادم :

قلت يوما لدار قوم تفانوا — أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا — ثم ساروا ولست أعلم أينا

ثم قال اليفرنى رحمه الله :

لطيفة : تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر ، وهذا القدر هو الذى بقى فيه البديع قائما ، فانه فرغ منه سنة اثنين وألف ، وشرع فى هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف ، فمدة عمره مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق فسبحان من دقت حكمته ، وجلت قدرته ، وعمت رحمته ، لا اله الا هو الحكيم العليم .

ثورة الناصر بن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله

كان الناصر هذا فى حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلا ونواحيها ، ولما توفى أبوه المذكور وقام بالامر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلا عنده سائر أيامه الى أن قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر : فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن اليه ، فلم يزل عنده فى ارغد عيش الى ان توفى المعتصم يوم وادى المخازن. وأفضى الامر الى المنصور ففر الناصر الى آصيلا ، وكانت للنصارى يومئذ ، ثم عبر البحر منها الى الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة الى ان سرحه الطاغية الى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين واحداث الشقاق بينهم ، فخرج الناصر بمليلية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف ، وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا اليه يزفون ، فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب بأسره لذلك .

وذكر اليفرنى فى « الصفوة » : « أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتابا الى الشيخ الصالح أبى عبد الله محمد بن على بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاغية له ، فوقع الكتاب فى يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه ، ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين » .

ثم ان الناصر خرج من مليلية قاصدا تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت اليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم ، فتألبوا عليه وتمالأوا على اعزازه ونصره ، ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم : «ان النصارى يغرمون حتى على البيض» . ولما سمع المنصور بخبره أقلقه ذلك وتخوف منه غاية ، لان الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النفوس اليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية ،

قال في « ابتهاج القلوب » في ترجمة الولى الصالح أبي الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بابى الشكاوى دفين شالة : « انه كان سائرا يوما على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم : « يافقراء أتسمعون ما تقول بغلتى ؟ انها تصيح بالنصر لمولاى الناصر وكذلك الشجر والحجر وانى أرى غير ذلك » فكان الامر كما قال ؛ اهتز لقيام الناصر كل شيء ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر» اه

ثم ان المنصور بعث اليه جيشا وافرا فهزمهم الناصر واستفحل أمـــره وتمكن ناموسه من القلوب،فأمر المنصور ولى عهده المأمون بمنازلته فخرج اليه من فاس في تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الد برة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب ،ومر على وجهه فاحتل بالجاية ، بلدة من عمل بلاد الزبيب ، فلحق به ولى العهد فلم يزل في مقاتلته الى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به الى مراكش . وكان ذلك سنة خمس وألف ، وقيل سنة أربع وألف.

قال في « نشر المثانى » : « كان مقتل الناصر وادخاله مقطوع الرأس الى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الاصح »

وذكر الشيخ أبو على اليوسى في «المحاضرات» ما نصه : « حدثوا عن صلحاء تادلا: أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الصومعى : « ان الناصر يدخل تادلا » يعنى دخول الملك فلما بلغ الخبر الى الشيخ أبى عبد الله محمد الشرقى التـــادلى قال: « مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها» فكان الامر كذلك فانه هزم في نواحى تازا ثم قطع رأسه وحمل ا لىمراكش فدخل تادلا في طريقه » اه .

ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوى قال :

تهنا أمير المؤمنين فقد جـــــرت ... بسطوتك الاقدار جرى السوابـق
أضاءت لك الايام واحلولكت عـــلى ... عدوك وارتجت رؤوس الشواهق
وذاك الذى قد خيب الله سعــــده ... تردى فلم تنفعه نصرة مـــــارق
فكان كما قد قيل لكن رأســــــه ... أتى سابقا والرجل ليست بسابـــق

ضمن قول بعضهم فى الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوبا منكوس الرأس :

لقد طمح المهر الجموح لغايـــة ... تقطـع أعنـاق الجيـاد السوابق

جرى فجرت رجلاه لكن رأسه ... أتى سابقا والرجل ليست بسابق

وكتب المنصور بخبر هذا الفتح الى الآفاق .

فمما كتبه للشيخين الامامين أبى عبد الله محمد زين العابدين البكرى ، وأبى عبد الله محمد بدر الدين القرافى رسالة يقول فيها ما نصه :

«من عبد ربه المجاهد فى سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسنى، الى الفاضل الذى اعتجر بالتقوى وهو زين العابدين، وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين، والسالك الذى برز فى الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقـة ففات شأو السابقين ، والعارف الذى تجرد عن رعونة الاهـــواء النفسانية ، فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافى، السيد بدر الدين القرافى، والشيخ العارف الواصل، السر الكامل ، سلالة العلماء ، سبط الفضلاء ؛ أبى عبد الله زين العابدين بن الشيخ السامى المقام ، قطب المشايخ الاعلام ، فخر علماء الاسلام ، الشهير البركة فى الانام ؛ أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن الصديقى ، أبقاكما الله وأرواحكما تتعطر برياحين الانس فى حضرة القدس ، وتتنسم النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج الانس ومعارج النفس ، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد حمد الله مفيض انوار عناية احمد على صاحبه الصديق ، مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق ، والصلاة والسلام عـــلى سيدنا محمد الذى اختار لمرافقته صاحبه فى الغار والعريش والطريـــق ، والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق، وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق وببركتهم اتسق لنا الفتح اتساق الاسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الافلاك ، فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله ، وصنع الله لها مفعم السجال وواسع المجال، وعزمتها الماضية تبعث الى العدا رسل الاوجال ، والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور ، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهر،

هذا وأنه اتصل بعلى مقامنا كتابكما الذى صدحت على أفنان البلاغة سواجعه ، وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ، ولطفت في كل معنى من المعانى أفانينه ومنازعه ، وتألفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه ، وأينعت بأزهار العناية الربانية اباطحه الفيح وأجارعه ،ومعه المنظومات التيسحت بالحكم ديمها، ورسا فيالبلاغة قدمها، وربا فيمنبتالمواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها ، وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا في مطلعها ، والبدر ليلة تمامه اعجابا بها وتنويها بمهديها ، وابتهاجا بالخوارق التى أطلق الله على لسان مبديها ، والى هذا فليحط علمكما بان مقامنا تنفق فيه على الدوام ان شاء الله نفائس بضائعكم ، وتنمو فيه مع الايام سعود مطالعكم ، وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم، وتستوضح فيه على المحبة الصميمة اماراتكم الواضحة وعلاماتكم ، فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر، وتشتد الاواخي والاواصر ، بعز الله ومنه ، ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى ، واهداء المسرة الكبرى ، اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذى هو اليوم العدو الكبير للاسلام ، وعميد ملل التثليث وعبدة الاصنام ، لما أنس من تلقاء جنابنا نارالعزم تلتهب منا التهابا ، وبحر الاحتفال تضطربأمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا ، وهممنا قد همت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين ممطول ، وعلم أن الحديث اليه يساق ، والى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق ، رام خذله الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت به في عضدنا الاقوى ، وعزمنا الذى بعناية الله يزداد ويقوى ، فرمى بمخذول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه ، وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاما اليه ، الى مليلية احدى الثغور المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التى الى كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة من بعدنا ، الامير الاجل الارضى ، صارم العزم المنتضى ، وحسام الدين الامضى ، أبى عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله ، وصل الله لرايته التأييد والظهور ، والعز الذى يستخدم الايام والدهور ، فالتف عليه من اغتر بأباطيله الواهية البناء ، من أوباش العامة والغوغاء ، ومن قضى له من أجناد تلك

الناحية بالشقاء ، جموع تكاثر الرمل ، وتفوت الحصا والنمل ، لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته ، اذ صدقته منيته ، فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التى اليه ، وبعساكر تلك الممالك التى ألقينا زمام تدبيرها فى يديه، فما راع الشقى الا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الاجدل،وتصميمه اليه بعزائم تدك الطود وتفلق الصخر والجندل ، فاستولى عليه بحمد الله للحين، وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغرمحجل ، وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل ، فاستأصلتهم الشفار ، وحصدت هشيمهم المصوح ألسنة النار ، وقبض على الشقى فى يوم كان شفاء للصدور ، ومنتزها لحملة السيوف وربات الخدور ، وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم ، والمن الجسيم ، لولدنا أعزه الله عز وجل فى خاصة أجناده ، ونهض وحده باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون ، وأجنادنا فى اوطارنا لاهون ومفتنون ، فلم يحتج الى انجاده من قبلنا ولا امداده ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، وعرفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التى سرت الاسلام ، وساءت بحمد الله عبدة الاوثان والاصنام ، وتعلموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ آراء الحزم ، وأعمال عوامل الجزم الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التى عادت عليه أسفا ولهفا ، واعادة ما كان أسلف من ذلك ان شاء الله بالمكيال الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا ان شاء الله بأدعيتكم الصالحة فى أوقات الاجابة، وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خضوع وانابة ، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس ، وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس ، حتى ينطق لسان الدين فى أرضها بكلمة الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس ، وشرق بريقه فغص وخنس ، فبيده الحول والقوة ، وعنايته العناية المرجوة، ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ، ثم الاتحاف بذيوان الشيخ

والدكم التماسا لجميل بركاته ، وتمسكا بما سبق من الاجازة العامة فى سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته ، وهذا موجبه اليكم ، والسلام الاتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته ، فى ربيع النبوى سنة خمس وألف ،اه .وهذه الرسالة من املاء المنصور على ما قيل .

ومما كتب به أيضا بخط يده الى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبى المحاسن حسن بن أبى نمى بن بركات ما نصه :

من عبد الله المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أحمد أمير المومنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسنى الى الاصالة التى تبحبحت من ذؤابة هاشم فى صميمها ، وتوغلت من غرفات حرمة الله بين زمزمها وحطيمها ، وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاريجة وشميمها ، اصالة السلطان الاثيل الاثير الاسنى الاسمى الازكى السلطان حسن بن أبى نمى أبقاكم الله والبيت ذو الاستار تتفيأون ظلاله ، وتلثمون من الحجر الاسود الاسعد خاله ، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أعز هذه المثابة العلوية ، الامامية النبوية ، العزيزة الانصار ، السامية المحتد والنجار ، الساحبة أذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامى المقدار ، سكان الحمى والذين تبوأوا الدار ، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذى أطلع شموس الهداية الساطعة الانوار والرضا عن آله الذين تتضاءل لمجدهم السامى المنار الشموس والاقمار ، وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى المنصورى الحسنى بنصر تجنى الفتوح من قضب رماحه، وتجرى الاقدار على وفق اقتراحه ، فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال فى ميادين السجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور ، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاءة الدهور ، بعز الله وعنايته . هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذى ليس بعاف ولا محيل ، وهب له من محارم الله نسيم يميل ،

وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل ، مد الى على مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله ، ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مرتحله وحله ، يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد والمصدر ، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر ، فحملناه هذه العجالة لترعوا له ان شاء الله عنهما الحق المعتبر ، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر ، وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر ، ومما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الاحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام ان يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الاندلس ، وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس ، حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التى طالما سكت عنها نداؤه وخرس ، وشرق بريقه فغص وخنس ، فذلك دعاء لا يرد لانه جرى من أهله فى محله ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى.

وقوله حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله .

ذكر احتفال المنصور بالمولد الكريم واعتنائه بسائر الاعياد

قال الفشتالى : « كان ترتيب المنصور فى الاحتفال بالمولد النبوى الكريم أنه اذا ظلعت طلائع شهر ربيع الاول صرف الرقاع الى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين فى الاسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب ، ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين من كل ما يبارى النحل فى نسج أشكالها لطفا وادماجا فيصوغون أنواعا من الشمع التى تحير النواظر ولا تذبل زهورها النواضر فاذا كان ليلة المولد تهيأ لحملها وزفاف كواعبها الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون فى أجمل شارة

وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها، فيمكثون الى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس المغروب فيخرجون بها على رؤوسهم كالعذارى يرفلن في حلل الحسن ، وهى عدد كثير كالنحل ، فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الاعناق ، وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الاطبال والابواق ، وأصحاب المعازف والملاهى حتى تستوى على منصات معدة لها بالايوان الشريف فتصطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة ، وأمامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدمى وحمر جليت في ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع الحسك والمباخر ما يلهى المحزون ويدهش الناظر ، ثم دخل الناس أفواجا على طبقاتهم فاذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع في ذلك باختصار ، فاذا فرغ اندفع القوم في الاشعار المولديات ، فاذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششترى وأشعار الصوفية ، ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين ، فاذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة ، فيتقدم قاضى الجماعة الشاطبى بلبل منابر الجمع والاعياد فينشد قصيدة يفتتحها بالتغزل والنسيب ، فاذا تم تخلص لمدح النبى صلى الله عليه وسلم ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولى عهده ، فاذا قضى نشيده تقدم الامام المفتى المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال ، فاذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن على بن منصور الشيظمى ، ثم تلاه الكاتب أبوفارس عبد العزيز الفشتالى ، ويليه الكاتب محمد ابن على الفشتالى ، ويليه الاديب محمد بن على الهوزالى النابغة ، ويليه الاديب الفقيه أبو الحسن على بن أحمد المسفيوى ، فاذا طوى بساط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدأ بالاعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فاذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم ، هكذا كان دأبه في جميع الموالد ، ولا يحصى ما يفرغ فيه من انواع الاحسان على الناس » اهـ من كتاب « مناهل الصفاء » .

وقال صاحب « النفحة المسكية » «في السفارة التركية» : وهو العلامة

المشارك أبو الحسن على بن محمد التامجروتى : « حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لايوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المشيد . المحتوى على قباب متقابلة عالية وقد مد فيها من فرش الحرير ، وصنت النمارق وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب. على كل باب قبه وحنية سرير ، ودار على الحيطان حائطيات الحرير التى هى كأزهار الخمائل مارئيت قط فى عهد الاوائل ، وتلك القباب مرفوعة الجوانب، على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤس بالذهب الذائب ، مفروش جلها بالمرمر الابيض مخططا بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب ، فيدخل الناس على طبقاتهم وياخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقــواد وكتاب وأصناف الاجناد ، فيخيل لكل منهم أنه فى جنة النعيم ، والسلطان جالس فى فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار ، وترمقه الابصار بالتعظيم والاكبار، ويجاس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر ، وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الاجناد والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة وأوتى بأنواع الطعام فى القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والاوانى التركية والهندية،وأوتى بالطسوس والاباريق وصب الماء على ايدى الناس ، ونصبت مباخر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضةوالذهب واغصانالريحانالغض فرش بها البساطورش منماء الوردوالزهر، وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن اليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للامير . واذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول ، وهذه سيرته دائما » اه .

وهكذا كانت سيرته فى شهر رمضان عند ختم صحيح البخارى وذلك أنه كان اذا دخل رمضان سرد القاضى وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة البخارى وهى عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا فى كل يوم سفرا الا يوم العيد وتاليه ، فاذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخارى وتهيأ له السلطان أحسن تهيىء ، الا أن العادة الجارية عندهم فى ذلك أن القاضى

يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر ، ويتفاوض مع الحاضرين فى المسائل ، ويلقى من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون فى المذاكرة فاذا تعالى النهار ختم المجلس ، وذهب القاضى بالسفر فيكمله سردا فى بيته ، ومن الغد يبتدىء سفرا آخر ، وهكذا والسلطان فى جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع .

قال الفشتالى : « وكان المنصور يعطى أموالا لذوى الحاجات عند انقضاء رمضان ، ويقيم مهرجانا يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء ، وكل من ختن منهم أعطى أدرعا من كتان وحصة من الدراهم وسهما من اللحم » اه .

وأما ترتيب جيش المنصور وعادته فى أسفاره فسنذكرها فى الفصل بعد هذا ان شاء الله ، ولنذكر بعض القصائد الميلادية التى أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الاشارة اليه ، فمن ذلك قول القاضى أبى القاسم بن على الشاطبى رحمه الله :

ما بال طيفك لا يزور لماما ... وبمنحنى الاحشا ضربت خياما
أيعيش فيك عواذلى لسلوهم ... وأموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من أدمعى ... أو ليس نهر السائلين حراما
ما ذقت ماء لماك فى سنة الكرى ... الا انتبهت فكان لى أحلاما
عرض اذا حدثت عن بان الحمى ... فحديث قلبى بالاجارع هاما
أروى حديث الرقمتين مسلسلا ... عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلق من جيب النسيم تحية ... أضحى الهوى بردا لها وسلاما
ياجيرة العلمين دعوة شيق ... للذيذ عيش بالغضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد ... ألف الاقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثار أهل نجدانهم ... سلبوا الفؤاد وأدنفوا الاجساما
فى كل غرب دموع عينى مشرق ... لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رثت الى ... انسانها فى لجة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقا لمن ... وقفت عليه صلاتها وسلاما
خير الانام محمد الهادى الذى ... أردى الضلال وجب منه سناما

كنز العوالم سـر طينـة آدم ... ولحفظ ذاك السر جاء ختامـا
وأجل أرسال الاله ومـن بـه ... قد لاذ يونس حين خاض ظلامـا
وتقاصرت عن فرده اعدادهـم ... فلـذا تقـدم فى الحساب اماما
أسرى الى السبع الطباق فاقبلـت ... زمر الملائك وفده اعظامـا
فى ليلـة غصت بأمـلاك السمـا ... فتسير خلف ركابه وأمامـا
ياخير من بهر المعاند شأنـه ... عجزا فغص بريقه افحامـا
أعيى جلالـك أن يحيط بوصفه ... وصف البليغ وأخرس الاقلامـا
صـلى عليـك الله مـا زار الحيـا ... روضا ففتـح زهـره الأكمامـا
ما لـذتى فى مـدح غيـر مخلصا ... الا بمدحـى مـن بنيـك اماما
خير الورى وامامها المنصور مـن ... فى ظل دولته الانام أناما
أضفى على الارضين ظل مهابـة ... فحمى بها حام العبـاد وسامـا
وسما على الدنيا عقـاب تنوفـة ... فانقـض يفترس الاسود بهامـا
قـل للملوك هبـوا لمالككم فـدى ... وخذوا لانفسكم لديه ذمامـا
هذا الذى يحيى البلاد بعدلـه ... ويعيدها نشرا وكن رمامـا
هذا الذى وعد الاله بأسـه ... يطوى البلاد ويفتح الاهرامـا
يا مشبه المهدى فى آرائـه ... حزما وفى عزماته اقـداما
أنت الذى ببنيه أبنـاء العـلا ... أرسى البلاد ووطد الاسلاما
فكأنها من حولك الاشبـال فـى ... غاب الوشيج تبـوأت آجامـا
وأمينها المأمون عضب سمامهـا ... علم اناف على الهضاب سنامـا
وأجـل مضطلـع تخيره الـورى ... بعد الامام فقدموه امامـا
وحباه أحمد عهد أمة أحمـد ... فوفى فكان لرعيه المعتامـا
لا يعدون النصر سيفـك انـه ... سيف يحوط الدين والاسلامـا
خذها ينم على العبيـر مديحهـا ... ويفض عن مسك الختام ختامـا.

وقال العلامة مفتى الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف الفيلالى :

أرقت وشاقتنى البروق اللوامـع ... وذكرى خليط هيجتها المرابـع

مرابع عفتها الرواسم والسما تراق من الاشواق فيها المدامع
كان لم تكن من قبل قدما أو اهلا اذ السلك منظوم وشملى جامع
تذكرنى عهد الاجازع واللوى وأين اللوى منى وأين الاجازع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة وجفن الردى عنا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالبزل والليل دامس أنازعها الشكوى بها وتنازع
أسائلها عن جيرة بان حيهم وضمت هواهم بعد ذاك الاضالع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم ولاح لهم برق من الغور لامع
يخبر عن دار الرسول وقربها عراص بها للوحى فاضت ينابع
ديار بها حل الحمى سيد السورى وهبت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل ويا خير من تثنى عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما وأنت الذى يرجوه عاص وطائع
لك الفخر فى الدارين والموقف الذى لاهواله كل النبيين جازع
فآدمهم والكل تحت لوائكم وليس لنا والله غيرك شافع
فجازاك رب العرش ما أنت أهله جزاء به يشجى المناوى المخادع
وجازى اماما قد نمته اليكم أصول وآباء كرام فوارع
سميك وابن السبط حقا ومن له عوارف فى أعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائف مفردا اليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام ولى العهد بعدك صارما يخب الى نيل العلا ويسارع
هو الآمن المؤمون من كل فتنة لفيض الندى من راحتيه تدافع
ففيك أقول والنصوص شواهد أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا وفاضت بحور للعلوم هوامع

أشار بهذا الى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الامة أمر دينها » .

وحمله بعض الائمة على ان المجدد من الملوك ، وقيل من العلماء ، وقيل من الاولياء والصواب الاطلاق .

وقال الوزير القائد أبو الحسن على بن منصور الشيظمى رحمه الله تعالى :

من بعد أهل قبا وأهل كداء　　شوقي يزيد وعز ذاك عزائي
ولى الشفاء بقربهم وهم جلا　　ما في الخواطر من صدى وصداء
لكنه بعد المزار فأين من　　تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم　　ذات السنا والرند والاضواء
وشدا بهم حادى الركاب فكاد أن　　تدع القلوب جسومها بفضاء
ياسعد لو ان الزمان مساعدى　　ومجيب داعي البعد بعد ندائي
لركبت حرفا كالهلال منافرا　　للهمز الا في المنادى النائي
وجبت أحياء الفلا وطويتها　　طي الملا بنجيبة فوداء
تختاض في جوف الظلام كأنها　　سر تولج في ضمير حجاء
وتخال في لجج السراب سفينة　　تجرى القلوع بها بريح رخاء
هل أنزلن بها المحصب من منى　　وأزور بعد معاهد الزوراء
فأحط عنها الرحل ثم مخيما　　في ظل أحمد بغيتي ومنائي
وامرغ الخدين ملتثما ترى　　وطئته رجلا خاتم النبئاء
محيى الهدى ماحى الضلالة والردا　　بالبيض والخطية السمراء
صلى عليه الله ما نسخ السخا　　لؤما وما أجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام وآله　　أكرم بهم من سادة فضلاء
أكرم بوارث مجده وعلائه　　سبط الرسالة غرة الابناء
خير الخلائف أحمد المنصور من　　حاز الكمال وشرط كل علاء
الصارم الهندى في يمنى الهدى　　والكوكب الوقاد في الظلماء
يا أيها الملك الذى بسيوفه　　حاط الهدى وبرأيه الوضاء
ذخر الاله لك الفتوح وصانها　　كالزهر في الاكمام والاوعاء
لابد من فتح يروقك واضح　　كالصبح يدرأ في نحور عداء
وستملك الحرم الشريف وينتمى　　للوائك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد أتت منقادة　　بظبى بنيك السادة النجباء
وتقر عينا بالخليفة مهم　　وزر البرية عدة الامراء
بمحمد المأمون خير من ارتقى　　درج الكمال ودب للعلياء

فرع سيحكى أصلـه ولقـد حكى   بمقاصـد قـد سـددت ودهـاء

وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى رحمه الله تعالى :

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى   وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى
وهم أخفروا فى مهجتى ذمم الهوى   فلم يثنهم عن سفكها حبى الجانى
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسى   فشوقهم أضحى سميرى وندمـانى
وان غادرتنى بالعراء حمولهـم   كفى أن قلبى جاهـد اثر أظعانى
قف العيس واسأل ربعهم أية مضوا   أللجزع ساروا مدلجين أم البـان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا   مـلاعب آرام هنـاك وغـزلان
وأين استقلوا هل بهضب تهامـة   أناخوا المطايا أم على كثب نعمان
وهل سال فى بطن المسيل تشوقـا   نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
واذ زجروهـا بالعشى فهـل ثنى   أزمتها الحـادى الى شعب بـوان
وهل عرسوا فى ديرعبدون أم سروا   يـؤم بهم رهبانهـم ديـر نجران
سروا والدجا صبغ المطارف فانثنى   بأحداجهم شتى صفات وألـوان
وأدلج فى الاسحار بيض قبابهـم   فلحن نجوما فى معارج كثبـان
لك الله من ركب يرى الارض خطوة   اذا زمها بدنـا نواعـم أبـدان
أرحها مطايا قد تمشى بها الهوى   تمشى الحميا فى مفاصل نشـوان
ويمم بها الـوادى المقدس بالحمى   به المـاء صدا والكلا نبت سعدان
واهـد حلول الحجر منـه تحيـة   تفاوح عرفا ذاكى الرند والبـان
لقد نفحت من شيح يثرب نفحـة   فهاجت مع الاسحار شوقى واشجانى
وفتت منها الشرق فى الغرب مسكة   سحبت بها فى أرض دارين أردانى
وأذكرنى نجـدا وطيب عـراره   نسيم الصبا من نحو طيبـة حيانى
أحن الى تلـك المعاهـد انهـا   معاهـد راحاتى وروحى وريحانى
وأهفوا مع الاشواق للوطن الذى   به صح لى آنسى الهنى وسلوانى
وأصبـوا الى أعـلام مكـة شائقـا   اذا لاح برق من شمام وشهلان
أهيل الحمى دينى على الدهر زورة   أحث بها شوقا لكم عزمى الوانى
متى يشتفى جفنى القريـح بنظرة   يزج بها فى نوركم عين انسانى

ومن لى بأن يدنـوا لقاكم تعطفـا   ودهرى عنى دائما عطفـه ثـانى

سقى عهـدهم بالخيف عهد تمده   سوافح دمع من شؤونى هتـان

وأنعـم فى شط العقيـق أراكـة   بأفيائها ظل المنى والهوى دانـى

وحيا ربوعـا بين مـروة والصفـا   تحيـة مشتاق لهـا الـدهر حيران

ربوعا بها تتلو الملائكـة العـلا   أفانين وحى بين ذكـر وقـرآن

وأول أرض باكـرت عـرصاتهـا   وطرزت البطحـا سحـائب ايمـان

وعرس فيهـا للنبـوة موكـب   هو البحر طام فوق هضب وغيطان

وأدى بها الروح الامين رسالـة   أفادت بها البشرى مدائح عنـوان

هنا لك فض ختمها أشرف الورى   وفخر نزار من معد بن عـدنان

محمـد خير العـالمين بـأسرهـا   وسيد أهل الارض الانس والجان

ومن بشرت بالبعث من قبل كونـه   نوامس كهان وأخبـار رهبـان

وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت   سماء ولا غاضت طوافح طوفـان

ولا زخرفت من جنة الخلد أربـع   تسبح فيهـا أدم حـور وولـدان

ولا طلعت شمس الهدى غب دجية   تجهم من ديجورها ليـل كفران

ولا لحقـت بالمـذنبين شفـاعـة   يـذود بهـا عنهـم زبـانى نيران

له معجزات أخرست كل جاحـد   وسلت على المرتاب صارم برهـان

له انشق قرص البدر شقين وارتوى   بماء همى من كفـه كل ظمآن

وأنطقت الاوثـان نطقـا تبرأت   الى الله فيـه من زخارف ميـان

دعا سرحـة عجما فلبت وأقبلت   تجر ذيول الزهر ما بين أفنـان

وضاءت قصور الشام من نوره الذى   على كل أفق نازح القطر أودانى

وقد بهج الانـوا بدعوتـه التى   كست أوجه الغبراء بهجة نيسان

وأن كتاب الله أعظـم آيـة   بها افتضح المرتاب وابتأس الشانى

وعدى عـلى شأو البليـغ بيانـه   فهيهات منه سجع قس وسحبان

نبى الهدى من أطلع الحق أنجما   محـا نورهـا اسداف أفـك وبهتان

بعـزتهـا ذل الاكـاسرة الالى   هـم سلبوا تيجانهـا آل ساسان

وأحرز للـدين الحنيفى بالظبـا   تراث الملوك الصيد من عهد يونان

ونقع من سمر القنا السم قيصرا   فجرعه منه مجاجة ثعبان

وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعا   يناغى الصدا فيهن هاتف شيطان

وأصبحت السمحا تروق نضارة   ووجه الهدى بادى الصباحة للرائى

أيا خير أهل الارض بيتا ومحتدا   وأكرم كل الخلق عجم وعربان

فمن للقوافى أن تحيط بوصفكم   ولو سجلت سبقا مدائح حسان

اليك بعثناها أمانى أجدبت   لتسقى بمزن من أياديك هتان

أجرنى اذا أبدى الحساب جرائمى   وأثقلت الاوزار كفة ميزانى

فأنت الذى لو لا وسائل عزه   لما فتحت أبواب عفو وغفران

عليك سلام الله ما هبت الصبا   وماست على كثبانها ملد قضبان

وحمل فى جيب الجنوب تحية   يفوح بمسراها شذا كل تربان

الى العمرين صاحبيك كليهما   وتلوهما فى الفضل صهرك عثمان

وحيى عليا عرفها وأريجها   ووالى على سبطيك أوفر رضوان

اليك رسول الله صممت عزمة   اذا أزمعت فالشحط والقرب سيان

وخاطبت منى القلب وهو مقلب   على جمرة الاشواق فيك فلبانى

فياليت شعرى هل أزم قلائصى   اليك بدارا أو أقلقل كيرانى

وأطوى أديم الارض نحوك راحلا   نواجى المهارى فى صحاصح فيعان

يرنحها فرط الحنين الى الحمى   اذا غرد الحادى بهن وغنانى

وهل تمحون عنى خطايا اقترفتها   خطى لى فى تلك البقاع وأوطان

وما ذا عسى يثنى عنانى وان لى   بآلك جاها صهوة العز أمطانى

اذا صد عن زوارك الباس والعنا   فجود ابنك المنصور أحمد أغنانى

عمادى الذى أوطا السماكين أخمصى   وأوفى على السبع الطباق فأدنانى

متوج املاك الزمان وان سطا   أحل سيوفا فى معاقد تيجانى

وقارى أسود الغاب بالصيد مثلها   اذا أضرب الخطى من فوق جدران

هزبر اذا زار البلاد زئيره   تضاءل فى اخياسها أسد خفان

وان اطلعت غيم القتام جيوشه   وارزم فى مركومه رعد نيران

صببن على أرض العداة صواعقا   أسلن عليهم بحر خسف ورجفان

كتائب لو يعلون رضوى لصدعت صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل أروع معلم وكل كمى بالردينى طعان
اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا هدتهم الى أوداجها شهب خرصان
من اللاء جرعن العدا غصص الردى وعفرن فى وجه الثرى وجه بستان*
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت تؤدى الخراج الجزل أملاك سودان
امام البرايا من على نجاره ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
دعائم ايمان وأركان سؤدد ذووهم قد عرست فوق كيوان
هم العلويون الذين وجوههم بدور اذا ما احلولكت شهب أزمان
وهم آل بيت شيد الله ملكه على هضبة العلياء ثابت أركان
وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فروع ابن عم المصطفى ووصيه فناهيك من فخرين قربى وقربان
ودوحة مجد معشب الروض بالعلا يجاد بأمواه الرسالة ريان
بمجدهم الاعلى الصريح تشرفت معد على العرباء عاد وقحطان
أولئك فخرى ان فخرت على الورى ونافس بيتى فى الولا بيت سلمان
اذا اقتسم المداح فضل فخارهم فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان
امام له فى جبهة الدهر ميسم ومن عزه فى مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمة يحوم بها فوق السموات نسران
وأطلع فى أفق المعالى خلافة عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوف الاسرة وارتدى على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق وشاهدت كسرى العدل فى صدر ايوان
وان هزه حر الثناء تدفقت أنامله عرفا تدفق خلجان
أيا ناظر الاسلام شم بارق المنا وباكر لروض فى ذرا المجد فينان
قضى الله فى علياك أن تملك الدنا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانك تطوى الارض غير مدافع فمن أرض سودان الى أرض بغدان

★ المراد به سبستيان ملك البرتقال لكنه عربه فقال بستان

وتملاها عـــدلا يرف لـواؤه على الحرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أتاك استلابا تـاج كسرى وخاقان
ولو نشر الاملاك دهرك أصبحت عيـالا على علياك أبنـاء مروان
وشايعك السفاح يقتـاد طائعـا برايتـه السوداء أهـل خـراسان
فما المجد الا ما رفعت سماكـه على عمدى سمر الطـوال ومران
وهاتيـك أبكار القـوافى جلوتهـا تغـازلهن الحـور فى دار رضوان
أتتـك أمير المـؤمنين كأنهـا لطائم مسك أو خمـائـل بستـان
تعاظمن حسنا أن يقـال شبيهها قرائـد در أو قـلائـد عقيـان
فـلا زلت للـدنيا تحوط جهاتهـا وللـدين تحميـه بملـك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيـز مـؤزرا تقاد لك الامـلاك فى زى عبدان

انتهت القصيدة الفريدة .

قال فى نفح الطيب : « أخبرنى ناظمها أنه أراد بقوله : « ونافس بيتى فى الولا بيت سلمان » قبيلة سلمان التى منها لسان الدين ابن الخطيب ، اشارة الى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله ، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسى رضى الله عنه » انتهى .

وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولـذا لم يذكر فى المنتقى من الامداح المنصورية غيرها ، وقد أثنى عليها فى « نفح الطيب » جـدا ، وتتبع ما قيل فى هذا الاحتفال ، واقامـة المولد العديم المثال ، من الامـداح يفضى الى الطول وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق .

١٦٣

ذكر سيرة المنصور فى ترتيب جيوشه وحالات أسفاره

قال الفشتالى : « كانت السيرة على عهد أبى عبد الله المهدى وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب فى الجيش والمأكل والملبس وغير ذلك ، ولما ولى المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح اليها فى سائر شؤونه لما رأى منها فى بلاد الترك حيث كان بها ، فكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفا مع العوائد . فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتى العرب والعجم ، واصطفى من العجم موالى رباهم بنعمته وأشملهم درور احسانه ، منهم : مصطفى باى ، ومعناه بلغة الترك : قائد القواد ، ويختص به قائد الاصباحية ؛ وكان برسم حراسة الباب العالى . ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الاموال . ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج ؛ والباشا جؤذر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس . وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج . وتليهم طائفة أخرى منها بختيار ، وبغا . ثم ان جيش العجم من الاتراك والعلوج قسمه الى أقسام ؛ منها البياك : وهم أهل القلانس الصفرية المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه . والسلاق : أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ويناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيفون اليها وقت الحزام أجنحة طوالا يؤلفونها أيضا من ريش النعام الباقى على أصل خلقته ويركزونها فى الجعاب المنوطة بالقلانس من أعلى الجباه ويرسلونها الى وراء ويقف هؤلاء خلف البياك . وبلبلدروش . وهم أهل اللقاقيف وهى رماح قصيرة غليظة العصى مغشاة بالحديد ومرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتى كل سنان منها اضلاع مستقيمة ، ويقف هؤلاء خلف السلاق . والشنشرية . وهم أهل الطعام وضعا ورفعا لا غير وقائدهم بختيار من سبى وادى المخازن . والقبجية : وهم أهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها

وقائدهم مولود المشاورى ، وطائفة من هؤلاء تحرس ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بالدار ، ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسى والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالايوان وتعاهد انماط الجلوس وكنسها . والشواش: وهم الذين يتولون ضبط الجيوش فى المصاف فى حرب أو سلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر .

قال الفشتالى : « وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول ، فاذا خرج فى يوم عيد أو ملاقاة أو تهنئة خرجوا متزينين وكل قائد يقف عند مبدا انبعاث حبل جيشه تحت ألوية محفوفا بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم : بالبكباشات ، فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه ، وهكذا يمتد الى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المومنين ، وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه الى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل الى ذلك لو أراده » .

قال الفشتالى : « والترتيب الذى جرى به العمل فى عساكر النار أن يتقدم أولا جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين ، ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالى من المعلوجى ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل فى زمرتهم ، وهذان يسيران صفين متساويين لاستواء مرتبتهما ، وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء، غير ان الموالى يكونون فى الميمنة لمزية الولاء ، وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان ، ويتقدم قائدهما محمود قائد الموالى ، وجؤذر قائد الاندلس ، وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بلكباشات . ثم يتصل بهذين العسكرين الدخالة العظيمة المؤلفة من البياك والسلاق وبلبدروش فتسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفا متساوية ، فأما البياك فيلون ركابه يحفون به يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه اليزنية المنصوبة أمامه ، ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه أقربهم درجة لقائدهم ابرويز، واذا مشى المنصور الى جامع المنصور من جهة قبور الاشراف أو للمشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله ابرويز بنفسه ، ثم يسير

عن يمينهم وشمالهم السلاق ، ويسير عن يمين هؤلاء وشمالهم بلبدروش أهل اللقاقيف ، وتتكيف من الجميع صورة تزرع الـرعب في القلـوب ، وتسير الجنائب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوبة صفا صفا الى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودهـا صنف يدعـون السراجة ركبانـا ، وكانت جنائب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية ؛ وجيش الاصباحية الذى الى نظر بيلاربـاى ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احداهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب الذى يرفع اللواء العظيم الابيض المدعو باللواء المنصور ، علامة على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه؛ وهناك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة . وأمامه الطبل العظيم الذى يسمع دويه من مسافة بعيدة ؛ ومن خلفه الطبول الاخر معها الغيطات ـ واحدتهاغيطة ـ يتولى النفخ فيها قـوم من العجم أساتيـذ يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها على شيء دون الحرب ، فـانها تشجع الجبان وتقوى جأش الخائف ، حكمة فيلسوفية ؛ وهناك مزامير أخر وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنباط مما أحدثه أيضا فى دولته وزادت به دولته فخامة وضخامة ؛ ثم يردف هذه الالوية والآلات من خلف أمير المومنين موكبه العظيم . فهذا ترتيب جيش المنصور انتهى باختصار من كتاب « مناهل الصفا » ، وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعديـة كما زعم بعضهم ، بل كان ذلك موجودا فى الدول القديمة شرقا وغربا .

قـال اليفرني : « وما ذكره الامـام الفشتالى من توافر أجناد المنصور وتكاثر جيوشه هوكذلك ، وقد أولعت العامة فى ذلك بأخبار واهية ، وزعموا ان المنصور خرج مرة الى الرميلة بظاهر مراكش ولم تعلم اصحابه بخروجه، فحين علموا بخروجه تبعوه خفافا وثقالا فأمر بعد ما معـه هنا لك من الجيش فوجد ثمانين ألفا ، فقال : « ياسبحان الله ، قد خاطرنا بأنفسنا حيث ركبنا فى هذا العدد » يستقله ؛ ولا يخفى مـا فى هذا الكلام من الافراط ، والـــذى ذكره الشيخ أبو العباس أحمد أفقاى الاندلسى فى كتابه المسمى بـ « رحلـة الشباب الى لقاء الاحباب » ما معناه قال : ان جزيرة الاندلس التى استردادها

من أيدى الكفار سهل والاسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش فى أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفا ، فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها فى الحين اه بالمعنى » اه كلام اليفرنى .

وأما بيان حالة المنصور فى السفر فقد قال شارح « زهرة الشماريخ » : « ان المنصور كان قليل الاسفار ، وانما سافر الى فاس مرتين لا غير ، وانما كان متفرغا للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته » . قال اليفرنى : « وبه يعلم أن ما شاع على الالسنة من أنه كان يمكث بفاس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم » .

وكان المنصور اذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن فى التهيئة ما شاء . قال صاحب النفحة المسكية : « كان له قصر من عود مسمر بمسامير وخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة ، وقد احدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان ، وزخرفة بنيان ، وفى داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضا وسودا وحمرا وخضرا كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش وملىء بأبهى الفرش ، وللسرادق الذى هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثم ينتهى منها الى القصر الذى فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكية التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين » اه .

ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالى فى المناهل قال : « خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين بأغمات » ، قال : « فتأخرت وراءه فلحقنى المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا فى أخريات الناس فأنشده :

أبا فارس بان الخليط وودعوا ،

فقلت : وولوا وحسن الصبر منى شيعوا

فقال :

وغرد حادى البين وانشقت العصا وكاد فؤادى للنوى يتقطع

فقلت :

الى الله أشكو فرقة منهم وقد تجرعت من كأس النوى ما تجرعوا

ثم زدت :

لئن شرد السلوان عنى بعدهم ففى صحبة المنصور أنسى أجمع

ثم قال :

تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع

فقلت :

سياج به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الامامة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات فى شارة حسنة ، فلما بلغ أغمات مكث فيه يومين وفى الثالث نهض الى زيارة الامام أبى عبد الله الهزميرى ، وعاج على ضريح الشيخ سيدى عبد الجليل ووقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما تيسر وفرق أموالا على ذوى الحاجات على يد القاضى الشاطبى ، والفقيه الامين ابى الحسن على بن سليمان الثاملى ، وكان معه الفقيه القاضى أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه ؛ وكان الحميدى لوذعيا خفيف الروح ، وفى هذه السفرة صدرت منه الابيات التى تبارى فى معارضتها شعراء الدولة ، وقد ذكرها فى النزهة فلتنظر هنالك ،

ومما يتعلق بأخبار الحميدى المذكور : أن المنصور سافر مرة الى تارودانت ومعه جماعة من الاعيان كالقاضى الحميدى وأبى العباس المنجور وغيرهما ، فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أخبيتهم ، فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة ، ويقال ان هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالى الرودانى ، فوطىء على طنب من أطناب خباء القاضى الحميدى فصاح القاضى « من هذه البقرة التى قوضت على خيمتى ؟ » متهكما بالرجل ! فألقى اليه الرجل قرطاسا فيه أبيات وقال : « البقرة من لا يجيب عن هذه » ونص الابيات :

الى بابك العالى مسائل ترتقى تفطن لهن يا حميدى واصدق

فما الحكم فى الاوزاغ هل ساغ أكلها وما الحكم فى موتى المجانين فانطق

وهل جاز للمسبوق بعد تشهد دعاء اذا ما رام اكمال ما بقى

وما وزن ليس يا أديب وأصله	وما جمع قلة لصاع فحقق
وما وزنه شمر ولاتن واثتنا	بجمع سواء والمقيد أطلق
وبين لنا (من) فى أعوذ بربنا	من ابليس والتخمين فى الكل فاتق

فبدا للحميدى ما لم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب ، فرفعت القضية الى المنصور فاستغربها وقال : « هذا رجل من أهل البادية فضح قاضى قضاة الحواضر » وأمر المنجور فأجاب عنها ، يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل ، ونص الجواب :

جوابك فى الاولى اباحة أكلها	بمذهبنا فاجزم بذاك وصدق
كذا ابن حبيب فى الخشاش أباحه	لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل فى الاوزاغ يحرم أكلها	وذلك فى الكافى ليوسف فاتق
ومستقذر يحكى المخالف منعه	وأنكره التنبيه فافهم ودقق
ورجح ما يحكي المخالف بعض من	له العزو للتحقيق لا للتشدق
وميت مجنون جرى خلف حكمه	بعلم كلام لا تكن غير متق
وتحقيقها ان الجنون الذى طرا	يصير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعد البلوغ طروه	وحينا يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة اثر الصلاح وقوعه	وحينا بعصيان الكبيرة يلتقى
وحينا يدوم للممات وتارة	يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد	وفاق امام فى المناجاة فارتق
وليس له فعل كقال وأصله	بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاعا فى القليل بأصوع	وأصؤع بهمز الواو فانهج ونمق
وان شئت فاقلبه فيرجع آصعا	لضابط تصريف فللعلم شوق
وصاع كعام عينه فرع ضمة	وتحريكه فتح فزنه وحقق
وجمع سواء فالذى منه جامد	بأسوية علم يقاس ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه	سواسية ثقل فبالحق فانطق
ومقصد (من) فى العوذ بدء لغاية	فابليس مبدأ العوذ عند الموفق

انتقاض ولى العهد محمد الشيخ المأمون على ابيه المنصور وما آل اليه أمره في ذلك

كان المأمون كما تقدم ولى عهد أبيه المنصور ، وكان خليفته على فاس وأعمالها سائر مدة أبيه ، وكان للمنصور اعتناء تام بـه واهتمام بشأنه حتى قيل ان المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال الا قال : « جعل الله فتحه على يد الشيخ » رجاء ان يقوم بالامر بعده ، فلم يساعد القـدر وخرج الامر كما قال القائل :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فأساء المامون السيرة وأضر بالرعية .

قال اليفرني: «وكان فسيقا خبيث الطوية، مولعا بالعبث بالصبيان، مدمنا للخمر سفاكا للدماء ؛ غير مكترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها . ولما ظهر فساده وبان للناس عواره ، نهاه وزير أبيه القائد أبو اسحق (*) ابراهيم السفياني عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته ، فأعاد عليه اللوم فلج فى مذهبه ؛ ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور . ومما انكر عليه انه قبض على كاتب أبيه أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن عيسى وهو مؤلف كتاب : «الممدود والمقصور من سنا السلطان المنصور» ووظف عليه أموالا وابتزه ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الالوان . فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لابيه كتب اليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه ، فما زاده التحذير الا اغراء ؛ فلما رأى المنصور انه لم يكترث بأمره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه الى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعا له ، فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لاصحابه ، وكان عدد

(*) بل ابو سالم كما في الدرة

جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفا كلهم بكساوى الملف والحرير على أحسن شارة وأكمل زى ، وعزم انه ان بلغه خروج ابيه من مراكش أن يتوجه فى أصحابه الى تلمسان ويستجير بالترك ؛ فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش ، وكتب الى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل ، وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما ، وقال له : « قد سوغتكه ولا أطالبك فيه » ومراده بذلك أن تسكن نفرته ويرجع اليه عقله ؛ فأظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يؤم سجلماسة ، فما انفصل عن فاس بشىء يسير حتى ندم ورجع اليها ، وعاد لما كان عاكفا عليه ؛ فبعث اليه المنصور أعيان مراكش وعلمائها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق ، ولم يألوا جهدا فى نصحه ، فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم ، مغمور الذهن بخلاف قولهم ، الا أنه أظهر الرجوع عما كان عازما عليه من الفرار عن أبيه ، وأقصر فى الظاهر عن بعض تلك المساوى . فرجع الوفد الى المنصور وقالوا له : « انه قد تاب وحسنت حالـه واطمأنت نفسه وانه واقف عند الامر والنهى » ؛ فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم : « لعل هذا اطفاء لنار الشحناء وكذب لاصلاح الباطن » وصمم على المكر بالشيخ ، فكتب اليه كتابا طويلا يلومه فيه على بعض الاشياء وفى ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة ، ونص الكتاب :

«من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المومنين ابن أمير المومنين أبى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله أوامره وظفر عساكره ، الى ولدنا وولى عهدنا الامير الاجل الافضل الاكمل الاعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله ؛ أما بعد ، فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد الا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة . هذا ، والذى أوجبه أسعدكم الله وكلاكم انه بلغنا انكم قد استخدمتم هناكم جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخى على بن محمد وأخى على بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم فى اعطياتهم نحو خمسة آلاف ، والى هذا اى مصلحة ظهرت لك فى

استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض ، بل مـا فـى
ذلك الا الفساد البين لان هذا الذى تعرضتم له لا يفى بـه المغرب ولا يقوم
معه بكم شىء ، ومسئلة هؤلاء أولاد طلحة ان كنت رأيت استخدامنا وأردت
تقليدنا فى ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم ان بيننا وبينكم فى هذه المسئلة فرقا من
وجـوه ، منها : ان مراكش ليست كفاس ، وان خدمتهم هنـا لبعدهم عن
بلادهم ليست كخدمتهم هناك ، وأيضا هـؤلاء الناس أنا أعرفهـم وكنت فى
بلادهم ، وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها منى وأنا هناك فوعدتهم اذ لا يمكننى
وأنا ببلادهم الا مساعفتهم ، فلما جاءوا اليوم وطالبونا بالوعـد لم يمكن الا
الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمناهم
ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة،
وكنت فى ذلك على خطأ اذ كان الاولى ان كنا حاسناهم وتركناهم من الخدمة.
وأما أنت ففى مندوحة عن هذا كله لانه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء
به ، ويمكنك أن تحيلهم على اذننا ومشورتنا فنكفهم عنك بالشرط الذى شرطنا
عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها . وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم
من استخدمنا ، والى هذا فالذى نؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمـة ولا
تستخدم منهم حتى فارسا واحـدا أصلا من الذين ذكرنا لك ومن غيرهـم
من كافة أولاد طلحة ، وأمرناك أن تنتصل لهم فينا وتقول لهم : ان السلطان
منعنى من استخدامكم هنـا وتقرأ عليهـم كتابنا الواصل اليكم صحبة هـذا
لتتفادى منهم ، ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره ، بـل تحسن اللقاء بهـم
وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم .

والذى شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبرا عليـه
هو ما وجدناهم قد أطلعوا عليـه ، اعنى أولاد طلحـة على بن محمد وغيره ،
من أحوالكم وأخباركم وألفيناهم قد توصلوا من ذلك الى ما لم يتوصل اليـه
أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا ، لان أهل بلادنـا
أحباء ما لهم بحث الا فى مصالح أنفسهم ، هؤلاء انما يتقدون ويبحثون عن
الغرة وعورات المملكة . فـاذا بكم تتخذونهم بطانـة وأصدقاء وتطالعونهـم

بأحوالكم وأموركم مع ان القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين أظهرهم وما يطلعون
عليه تحتاج تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا
بأنفسهم عليه . وأيضا لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا الا خيرا فالقوم عرب
لا يتحفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا
يتمالكون قولا ولا نطقا ؛ وبالجملة ، فقد أحرقتنا هذه المسئلة وتفطرت لهـا
أكبادنا ، وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بأن الناس كانوا يتحفظون
فى أقل الامور أن يطلع عليها الاجانب وان كانوا أحب من كل محب وأقرب
من كل قريب . وهل ما عندكم علم بأن أخانا بابا منصور كان عرض لـه
غرض ضعيف جدا أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر فى المجلس
منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من
بازائه لئلا يكون عيب فى ذكر ذلك بمحضره ، فعليه شاور القائد دحو بن
فرج – كان بازائه – فقال له : « هذا رجل برانى فلا تطلب شيأ قدامه »
على أن منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما اليهم من خواص
الخدام أهل بساطنا محبة وقربا لانه أسلف معهم خدمة عظيمة ، فقد كان عدوا
للترك وبينه وبينهم أرواح ، وحضر مع أخينا بابا حمو الحران جميع ما كان فى
تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الاوسط ، ثم مع بابا عبد القادر كذلك ،
وشرب معهم الحلوة والمرة . ولما جاء من تلمسان جاء بأولاده منها راحلا كما
جاء منها بابا عبد الله بأولاده ، وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد ؛ وما
زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت لـه يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن
بلـغ الى ان قلدوه حاضرة تازا ثـم بـلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الا
لاقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم ، ومع بلوغه الى هذا المبلغ
كله محبة وصداقـة وهجرة وانقطاعا حتى انـه فى دخول صالح رئيس مدينة
فـاس رحل بأولاده مع السلطان الى هنا كما فعل أهل هذه البـلاد ، وحين
دخلنا نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضا مع صاحب الجبل الى مراكش ،
ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب ابدا فى الحديث والقديم ؛ ثم ان النـاس
استبعدوا أن يطلبوا أقل المسائل بمحضره ، وقالوا انه برانى فضلا عن هؤلاء

الذين ما زالوا الى اليوم فى بلاد العدو يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطالعوهم على اموركم ريتوصلوا الى المعرفة بأحوالكم فما تمالكنا لهذه المسئلة ولا وجدنا عليها صبرا . ومن جملة الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور أن على بن محمد كان يتكلم يوما معنا وأخذ يثنى عليكم فى نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخائكم عند الحاجة ، ثم قال : «الا أن الخيل ليست عنده لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية لان القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه » وهى التى غاظتنى وقلت : كيف يتوصل الرجل البرانى الى أمثال هذه الامور حتى اننا ما وجدنا الا الرد عليه وعكس ما عرفنا انهم اعتقدوه وقلنا اللهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لاننا فهمنا منهم ذلك ، ولهذا أجبته وقلت له : ان ولدنا لم يعطهم شيأ وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين بأكل المال وعدم المخزنية ، ولو أعطى تلك القبائل لحشرها عليه لان أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف ، وعند أولاد أبى عزيز نحو ألف ونصف ، وعند الغربية وعند اولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبى رأس وعند أحمر وعد المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبو ، وجعلت اعدد له قبائل السوس وقبائل مراكش وأحصى له خيلهم بما بهته ، وقلت له : لو أنصفهم لحرك منهم معه ستة عشر ألفا أو أكثر ، ويكون قد ملأ بهم تلك البلاد ، وسال عليها من سيل العرم لا فى الحركة الاولى ولا فى الثانية ، ولو وجه اليهم المحركين والرماة لأتوه أيضا بلا خلاص . والى هذا نوصيكم على المحافظة من أولئك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا. واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا ان الخلط رجعوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف ، وكنا انتشبنا معهم بالعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار ؟ وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمحوا فيه مع ان هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسماع فقط ولا طويلة عهد حتى تنساها ، بالامس شاهدت وباشرت ورأيت فما الذى أنساك فعلهم وما

زال جرحهم الآن لم يبرأ ، لان خروج القائد مؤمن الخارج الآن ما كان الا اليهم . والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى فى هذه المسئلة ؛ وقد سمعنا أيضا أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخميس الى دار الدبيبغ ، وكأنكم نسيتم أيضا ما عمل أولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد فى البلاد حتى ينزلوا تلك المنازل ؛ والى هذا فساعة وصوله اليكم تقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصا : أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذى كان أبوه حاجبا عند المرينى فهو أصل الفساد ، ثم لا تترك لقبائلهم جناحا واحدا . وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف رام ليستوفى لكم الغرض فى هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به ، لان بقاء الرماة هنا لك ما فيه الا الاشتغال بالفساد فى المدينة فتحتاج أن تتولاهم بالقتل كل يوم باطلا فكان خروجهم انذاك دفعا لمضرتهم وجلبا للمصالح بهم ؛ وحتى الكاتب اللائق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لان كتبكم تاتى بخط سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخط الكرينى وهو جاهل ، مع انك لما كنت خليفتنا وولى عهدنا كنت بصدد ان يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى ، وكل من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب اليك ويكون أيضا ممن يوثق به فى المحافظة على أسراركم، والى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وصاحب مشورك وصاحب المظالم كما هنا هو عندنا السيد على بن سليمان ، واعلم ان مما تحتاج ان ننبهك عليه مسئلة القواد الذين يريدون أن يحملوك أثقال أولادهم مثل ما فعلت فى أولاد القائد بركة (*) واخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية ، فنؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحدا فما أعطيناه سلا الا ليرفع فيها أولاده واخوته وكذلك الحكم فى أمثاله ممن أعطيناه عملا وقلدناه قيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامهم فى الرماية اهل الجبال من أهل

(*) اليه الذى تنسب اليه عين بركة الداخل ماؤها لمدينة سلا .

الصحفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحدا والا فاعلموا أنكم ما أردتم حينئذ ان يغرموا لكم ولا يعطوكم شيأ ، وان أردتم الخدمة فهاهم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش ، فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم ، واذا لم يكن من هؤلاء وكان ولابد من غيرهـم فمن أهـل فاس سكان الحاضرة ، وأما من عـداهم فلا ؛ على ان الرماة أهـل السوس هاهى هنا عندنا كثيرة ، فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم اليك ونضيفهم الى خدمتك ، ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هـذه الامور كلها فصلا فصلا مـع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولابـد ولابـد ، وهذا موجبه اليكم ، والله يحرس بمنه عـلاكم والسلام . وفى مهل جمدى الاولى من عام أحـد عشر وألف » اه :

ثم لم يلبث المنصور أن بعث الى ولده زيدان ــ وكان خليفته على تادلا ــ يأمره أن يرسل مائـة من الفرسان على طريـق تاقبلات ، وكل من وجدوه قاصدا للغرب من ناحية مراكش يردونه ، وأرسل مولاه مسعود الدورى على طريق سلا يفعل مثل ذلك ، وخرج المنصور من مراكش* فى اثنى عشر ألفا أوائل جمدى الاولى سنة احدى عشرة وألف ، وجد السير ، فلم يمض الا أيام قلائل حتى نزل بالدوح ، موضع قريب من فاس ، والشيخ فى جميع ذلك لا شعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه ؛ فبعث يوما عيونه يرصدون له من قدم من مراكش ، ويكشفون عن الخبر ، فما راعهم الا الاباطح تسيل بأعناق الجياد ، وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الاودية والوهاد ، لانهم كانوا قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور للسابلة . فرجعوا الى الشيخ مسرعين ، والرعب يفت فى أعضادهم ويطفىء جذوة عزائمهم ، فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا ، فعلم أنه محاط به فلم يمكنه الا الفرار ؛ فركب من حينه وفر الى زاوية الشيخ الصالح أبى الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورغـة . وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفى قبل ذلك سنـة سبـع وتسعين وتسعمائـة كما فى المرآة . فنزل بالزاويـة ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الاحداث

---

* بعد ان استخلف عليها ولده ابا فارس

وقرناء السوء ، فبلغ خبره المنصور فبعث اليه الباشا جؤذرا مع القائد منصور النبيلى ، وحلف لهما بأغلظ الايمان ان لم يأتياه بـه ليمكرن بهما ويجعلهما عبرة ؛ فذهبا اليه فامتنع من الدخول فى يدهما ، وانعزل فى أصحابه حتى ناوشوه القتال ، وتراموا بالنبال ، ثم قبضوا عليه وأتوا به الى المنصور فى حبر طويل ، فأمر به الى مكناسة فسجن بها .

ودخل المنصور دار الملك من حضرة فـاس الجديد وشكر الله على ما اولاه من الظفر والنصر من غير اراقة دم ، وتصدق فى ذلك بأموال عظيمة ، وكتب بذلك الى ولده أبى فارس خليفته على مراكش يعلمه بماكيف الله له من الظفر والنصر ، ونص الكتاب .

« الى ولـدنا الاجل الارضى الاكمل الاسعد الاصعد الامجد الاسمى الاسنى بابا أبى فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكـم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، فكتابنا هذا اليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقى ولا شيء الا ما جرت به الاقدار ،وحكم به الفاعل المختار ، وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار ، وهى قضية أخيكـم التى ثارت الى بها صروف الدهر من مكمنى ، وطلعت على من مأمنى ، الا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولا ، ثم شفانا آخرا لله الحمد دائما والشكر واظبـا ، وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم السوء ان الحـال كان انتهى فى معالجة أمره الذى تجاوزنا فى وجوه الخير اليه حد الاستقصا ، وأتينا فى محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجح بما لا يحصى ، الى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وأبحنا له التوجه اليهما بجملته وجمعه ، رجاء أن تسكن بالانتباذ اليهما نفرته ، وتطمئن نفسه ويثوب اليه قلبه الطائر ، ويراجعه أنسه الحائر ، فأظهر أولا التوجه اليهما ، ونهض مرتحلا عن فاس موريا بالقدوم عليهما ، ثم بدا له على الحين فكر راجعا الى فـاس ، ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس ، وثاب لنفسه السكون والاستئناس ، فاذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر ، فأبدى ما أضمر ، فما كان الا ان طرأ عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك أن أقلع ليلة الخميس خامس

عشر شهر تاريخه اقلاعا أزعجه من الدار فريدا ، وطارت به النفرة الى أن حل بزاوية الشيخ ابى الشتاء وحيدا،فتلاحق به من جيش رماته اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم ، وعدد من كثرته لا يريم ، فبادرت حينئذ بتجهيز جـؤذر باشا من غير اغفـال فى خمسمائـة صبائحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك فى خمسمائة فارس ، ثم أردفناه ببعوث أخر نألبت اليه وتنائلت عليـه تناهز الالفين ورمـاة بابا زيدان حفظـه الله فأحدقت به من كل الجهات ، وملكوا عليه الفجاج والثنيات ، ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة نفرنه بالتسكين ، وما يخشن من أحواله بالتليين ، بارسال المرابطين تجاهه بمواثيق تهنيه ، وعهود تؤنسه وتقرب أمانيه، رجاء أن يثوب اليه ثائب استبصار ، أو يخطر له خاطر اقلاع عما هو عليه واقصار ، وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشر نارا ، ويزينون له عقوقا ونفارا ، فدهمتهم حينئذ عساكرنا المظفرة بالله فى مصافهم دونـــه ودارت بين الفريقين حرب عظيمة فخدمت النار من وقت الظهر الى العصر فأظهر الله تعالى فئة الحق على فئة الباطل . وقضى بما جرى به القضاء المحتوم الحكم العادل ، وكتبناه اليكم وقد حصل فى القبضة كما سبق به القضاء والقدر، وجعل بمكان الاحتياط عليه من مكناسة فكانت مشيئة الله فى ذلك من احدى العجائب والعبر ، وعرفناكم أسعدكم الله لتستشعروا صنع الله فى هذه الداهية التى فجئت بها الايام ودهمت ، والغاشية التى اعتكرت وادلهمت ، وتقدروا ما صنع الله فى ذلك من حسن العاقبة حق قـدره ، وتشكروه فهو الجـدير بجميل حمد كل لسان وشكره ، ونسأله تعالى أن يجعلكم فى حيز الكفاية ، وجانب الوقاية حتى لا تساؤا بقريب مأمون ، ولا ببعيد مظنون ، وفى ليلـة الثلاثاء الموفى عشرين من جمدى الاولى عام أحد عشر وألف » اهـ .

ثـم ان أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت الى أعيـان مراكش الذين قدموا مع المنصور ترغب اليهم فى أن يشفعوا لولدها عند أبيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما فى باطنه عليه ، فتقدموا الى المنصور وقالوا له : « ان الشيخ قد صلحت حالته ، وتاب مما كان عازما عليه ، وانه نـدم على ما فرط منـه »

فقال لهم : « اذهبوا الى مكناسة واختبروا أمره كافيا ، وانظروا هل رجع عن أباطيله ، وتنصل من أضاليله » : فلما أتوه وجدوه أخبث مما تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفه اللسان ، فلما جلسوا اليه فى محبسه لم يسألهم الا عن اصحاب بطانته وقرناء السوء من اهل غيه، ولم يظهر الاسف الا على تلك العصابة ورآهم أهل الاصابة .

وكان من الاعيان الذين وجههم المنصور أولا وآخرا أولاد الشيخ ابى عمرو القسطلى، واولاد الشيخ ابى محمد عبد الله بن ساسى، واولاد الشيخ أبى زكرياء يحيى بن بكار وغيرهم . فلما رجعوا الى المنصور من مكناسة سألهم عن الخبر فنافق بعضهم وقال : « وجدناه تائبا نادما على ما صدر منه » وتكلم بعض اولاد الشيخ ابن ساسى فقال : « لا والله لا داهنت فى حق الله ولا واجهت الامير بالخديعة ، ان ولدك لا نأذن لك أن تؤمره على اثنين ولا تحكمه على عيال الله فانا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة لم يندم على ما فرط منه » فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد ، فقال لهم المنصور : « افتونى فى أمر هذا الولد ؟ » فلم يجبه أحد الا باشاه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتى فانه قال له : « الرأى أن تقتله ، فانه لا ينجبر أمره ولا يرجى صلاحه وقد رأيت ما صنع » فلم يعجب المنصور ذلك وقال : « كيف أقتل ولدى ؟ » ثم بعث الى مكناسة يأمر بالتضييق على الشيخ والزيادة عليه فى ذلك . ثم خرج المنصور فنزل بمحلته فى ظهر الزاوية قاصدا مراكش بعد ان استخلف ابنه زيدان على فاس وأعمالها ، وقد كان كتب الى ولده أبى فارس خليفته على مراكش برسالة أجابه فيها عما كتب به اليه فى شأن الوباء الذى ظهر بالسوس ومراكش هل يفر منه أم لا ، ونصها :

« من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المومنين الشريف الحسنى أيد الله بعزيز نصره أوامره وظفر عساكره ، وأسعد بمنه موارده ومصادره ، الى ولدنا الاجل الافضل الاكمل الاعز الابر الاسعد الامجد الارضى بابا أبى فارس ، وصل الله تعالى عنايتكم ووالى بمنه رعايتكم وسلام عليكم ورحمة الله . اما بعد ، فكتابنا هذا

اليكم من حضرتنا العالية بالله المدينة البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية ، ونعم اللـه المتوافية ، لله الحمد وله المنة ، وانه اتصل بعلى مقامنا كتابكم الاعز عشية يوم الثلاثاء فكتبنا اليكم صبيحة يوم الاربعاء ، ولـولا انه وصـل يوم الديوان ما كنا نؤخر كتب الجـواب لكم عن ساعة وصولـه فى اليوم بنفسه حرصا منا بذلك على المبادرة بوصوله اليكم فى الحين ؟ والى هذا أسعدكم الله ان أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم اذا لاح لكم شيء مـن علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد ، ويبقى فى القصبة وصيفنا مسعود مع القائد محمد بن موسى بن أبى بكر ، وتتركوا مائة رام تثقون بها من رماتكم مع أصحاب السقيف وتتكلون على الله وتخرجون بالسلامـة ، ثم لا تعملوا كعملنا فى الاقتصار على الرميلة والتقلب بهـا ، بـل لا تزيدوا اذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ، ثم اطووا المراحل الى ان تنزلوا بسلا وتدخلوها دخول هناء وعافية ان شاء الله ، وهناك يكون لقاؤنـا بكم لقاء يمن وسعادة ان شاء الله ، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق اسعدكم الله فلازموه، واذا استشعرتم منـه حرارة وتخوفتموهـا فاستعملـوا من الـوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه . وأمـا ولـدك حفظه الله فلما كان من سن الشبيبة بحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق فهاهى الشربة المعروفة النافعـة لذلك قد تركناها كثيرة هناكم عند التونسى ، فيكون يستعملها هو والابناء الصغار المحفوظون بالله ، حتى اذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قـدر الحاجة فيعود اليها والله تعالى بمنه وبحرمـة صفوة خلقه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم يتولى حمايتكم جميعـا ويحلكم من جميل كلاءته ورعايته حصنا منيعا ، وأن يعافى البلاد والعبـاد بمنه وفضلـه ؟ والسلعة أسعدكم الله تبادرون بارسالهـا الينا ، وكذلك القائد مسعود النبيلى تعزمون بارساله الى حيث أمرناه بالمقام من خنق الـوادى بالسوس وطريق تاحظيشت ؟ واعلم أسعدكم الله ما قط أرضانـا أن أمرها يتم ، وقبـل عقلنا الكريم ان أهل درن يتجرون بسببها ، ولكن هـذا سبب يكون حجة عليهم ان شاء الله، وأنتم تحاولون اسعدكم الله سلوك الناس على بويباون على العادة،

وتجهدوا فى أن تكون ان شاء الله سابلة ، وأولائكم أعنى أهل طريق تاحظيشت يسكت عنهم حتى نصل بخير وعافية لتلكم البلاد ان شاء الله . ومسألة ايسى التى كتبت لكم من خنق الوادى على الزرع وانـه ما عندهم ما يكفيهم منـه سوى شهر فلقد كنا كتبنا لكم أسعدكم الله على حمل الزرع اليهم على البحر، فان كان قد تيسر ذلك فيكون قد بلغ اليهم وان لم يكن ذلك قد تيسر فلتأمر ايسى هذا بالتدبير على الزرع ولو بالشراء والزموه عهدته وشددوا عليه فى آمره ، وخالنا القائد حمو بن محمد الذى استأذنكم فى الخروج عن ذلكم المرض من المحمدية(*) فاذا تفاحش فلا عليه فى الخروج ويلتحق بأهل تلك المحلة بخنق الوادى ويترك فى القصبة أهل الاندلس مع قائدهم . ومسئلة مؤمن بن منصور مع هكسيمة التى ذكرتم أسعدكم الله ا نمؤمنا قد تثاقل بدمنات بسبب مرض ألم به حتى جاء به شاوش ، وان أخاه ذلكم المفسود بعث اليـه يلتقى معه بتامصلوحت فعلى بركة الله والحاضر بصيرة ، وهذا موجبه اليكم ، والله يصل بمنه رعايتكم والسلام . وفى يوم الاربعاء رابع عشر رمضان المعظم عام أحد عشر وألف ، عرفنا الله خيره وبركته . وبعـد أن كتبنا لكم هـذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم عما تحتاجون الى الجـواب عنه ، والبطاقـة التى ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو ولد خالكم أو غيرهما لا تقرأ ولا تدخل دارا بل تعطى لكاتبكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمنها ، ولاجل ان كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحها الا بعد أن تغمس فى خل ثقيف وتنشر حتى تيبس وحينئذ يقرؤها ويعرفكم بمضمنها اذ ليس يأتيكم من السوس ــ والله سبحانه أعلم ــ ما يوجب الكتمان عن مثل كتابكم ؟ وقد طالعنا كتاب ولد خالكم أحمـد بن محمد الصغير وصح عندنا من فحوى كلامـه ما ذكرتم عنه من أنه أكثر من خبر الوباء ليجده ذريعة للخروج من السوس، والذى تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم بمراكش ، وان ذلك لا

(*) المحمدية هى تارودانت نسبة الى محمد (فتحا) الشيخ بن القائم بأمر الله. وغالب السكة السعدية ضرب بها

يرضينا منه ، وكيف يروم الخروج من موضع عيناه له من غير أمرنا لاسيما مع غيبتنا عن البلاد ، وانه ان فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ، ثم لا يعود أبـدا اليها ، الا ان تفاحش المرض بتلكم الناحية فـلا عليه فى الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخنق الوادى . وأما ما ذكرتم عن محمد بن عبد الرحمن الوردى فقد طالعنا الجريدة التى جرد لكم وتصفحناها ورأينا أن جل ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا ، والذى نأمركم به فى مسئلته أنكم تحاولون فى رده لموضعه فانـه بذلك الموضع أليق من أخيه بكثير ، وكل ما يمكنكم من أغراضه المسطرة فاقضوه له ، وما لا يمكن عدوه به عند قدومنا ان شاء الله . وأما أمر أخى أحمد بن الحسن الذى عيناه لجباية درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك انه كما ذكرتم ، ولكن انما وقع الاختيار عليه لامرين : الاول الذمة لانـه بماله ولا نخشى ان شاء الله على مالنا ، الثانى ان خراج درعة سهل معلوم ، ولعله يكره هذه الولاية ويحب الجلوس بداره ويغرى من يتكلم فيه عندكم ، فان كان من ذكره لكم مثل مسعود أوتاودى فاتهمه ؟ وقد طالعنا فى جريدتكم انكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام ، وهذا الذى ذكرتم ما نعلم انا كتبنا لكم عليه قط ، وانما كتبنا لكم على الزرع تحملونـه فى البحر برسم المحلة التى هناكم بخنق الوادى ، فان كان هو هذا فنحن أردنـاه للمحلة ، وان كان غيره فعرفنـا بقضيته ، فان زرع المعاصر انما يلـزم اليهود والنصارى المكترين للمعاصر ، وفيها أيضا ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة ، وانكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الامر لانكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الاصلاح الذى أمرنا به فعرفنا لنكون على بصيرة من ذلك ؟ وفيها أيضا مسئلة أولاد طاحة فدبروا عليهم اما من عند ايسى أو غيره حتى لا يرجعون الينا شاكين . وولد ابراهيم بن الحداد الى الآن لم يصل ، وزمام الاسرى وصل . واما الدراقة التى ذكرتم فها السلتة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا ، فوجه ليوسف العبد حتى تكلمه ومره يخرجها من عنده وركبها فى موضعهاولا تركب التى عندكم

بل تمسكونها لانفسكم . واعلم انى تركت عند اولئك المعلمين أعنى معلمى بركاضو سلاتى برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها ، وحيث يفرغون من الدراقة اجمعهم عليها كى نجد ذلك طالعا ان شاء الله فانـا قد أمرنا بنسج درارق تلكم السلاتى*. هذا، والمراد أن نجد السلاتى قد فرغ منها ان شاء الله. وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما ، وحاول ان تسقفوا ذلك البلاط الذى يوالى سور القصبة من قصر الخيل والقبة التى فيه لنجده كامـلا ان شاء الله عند قـدومنا عليكم ، وحتى سوارى الرخـام ركبوها فى تلك الجهة اذا سقفتم ، ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الاشغال فى الموضعين المذكورين . وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزداد ألمه ، بل انظر له من يركبه كل يوم بـل لا تنزع السرج بالكليـة عن ظهره بياض النهار كلـه . أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه فى ذهابه وايابـه لداره والمسرة ، وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله . وأوصيكم أيضا اذا ظهر المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا وراءكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله . وامر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج اليه من الترياق الجديد الذى كان بقبة المشور ويدخل على أيديكم لدارنا ، واستدعوا أم المال قهرمانة الدار واعطها اياه برسم أهـل دارنا ، وأمرها أن تعطيهم اياه فى كل رابع من اليوم الذى يأكلونه فيه ، وهى أيضا تأكل منه ، والعبد يوسف أيضا يأكل منـه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعنى مسعود بن مبارك ، والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقـد استودعناكم الله الذى لا تضيع لديه الودائع ، وأنتم فى أمان الله وحفظه ، والله سبحانه خليفتى عليكم أنتم فى يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، والسلام الاتم عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، ونسلم على ولـدنا الاعز الارضى بابا عبد الملك ، وعلى ابنتنا الرضية سيدة الملك ونحن فى غاية الاشتياق والتوحش لها جمع الله بكم الشمل

* لعل العبارة فيها قلب وأصلها : بنسج سلاتى تلكم الدرارق .

جميعا آمين، بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله خير آل والسلام» اهـ

قال مؤلفه عفا الله عنـه : قـد وقـع فى كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان الى التنبيه عليهما ، الاول : اذنـه لولده ابى فارس فى الخروج من مراكش اذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيأ يسيرا وهذا الامر محظور فى الشرع كما هو معلوم ومصرح بـه فى الاحاديث ، والثانى : أمره أيـاه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وانما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس فى الخـل ، وهـذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم فى تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة ، وقـد اتفق لى فيها كلام أذكره هنـا تتميما للفائدة ، وذلك انه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا سفر الى حضرة السلطان المـولى أبى على الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الاول من السنة المذكورة ، ومررنا فى طريقنا على المحب القائد الانبل أبى عبد الله محمد بن ادريس الجرارى بثغر الجديدة ، وهو يومئذ متول لعملها ، فأجل قدومنا على عادته حفظه الله فى محبة العلم ومن ينتمى اليه ، وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت ، وكانت السنة سنة وباء ، فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى فى أمر الكرنتينة من حبس المسافرين وشذاذ الآفاق عن المرور بالسبل والدخول الى الامصار والقرى ومنـع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم ؟ وحصـل التوقف تلك الساعة فى حكمها الشرعى ما ذا يكون لو أجريت على قواعـد الفقه ، ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوى المصرى فى اخبار باريز فرأيته ذكر فـى صدرهـا : انـه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد المناعى التونسى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية بها العلامة الشيخ أبى عبد الله محمد البيرم فى اباحة الكرنتينة وحظرها ، فقال المالكى بحرمتها وألف فى ذلك رسالة ، واعتماده فى الاستدلال فيهـا على ان الكرنتينة من جملـة الفرار من القضاء . وقـال الحنفى باباحتهـا ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضا . فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لى النظر فى حكم هذه الكرنتينة وظهـر لى أن

القول باباحتها أو حرمتها منظور فيه الى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمه الله ، ثم يوازن بينهما وأيتهما رجحت على الاخرى عمل عليها ، فان استوتا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم فى أصول الفقه ،ونحن اذا امعنا النظر فى هذه الكرنتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة، اما المصلحة فهى : سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوبـاء ، وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة ، لانه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وانه مهما استعملها أهل قطر أو بلد الا ويسلمون لا دائما ولا غالبا بل الكثير أو الاكثر انهم يستعملونها ويبالغون فىاقامة قوانينها ثم يصيبهم ما فروا منه كما هو مشاهد؟ ومن زعم ان السلامة مقرونة بهذا دائما أو غالبا فعليه البيان اذ البينة على المدعى ، فنتج من هذا أن مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة ، واذا كانت كذلك فلا يلتفت اليها شرعا بل ولا طبعا لانها حينئذ من قبيل العبث . وأما المفسدة فهى : دنيوية ودينية ، أما الدنيوية فهى الاضرار بالتجار وسائر المسافرين الى الاقطار بحبسهم وتعويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم ، واما الدينية فهى تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح فى توكلهم وايهام ان ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه ، وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشىء يكون أو لا يكون ، فان العامة — لقصورافهامهم — قدتذهب اوهامهم معهذه الظواهر فيقفون معهاويقعونفى ورطة ضعف الايمان عياذا بالله فان قلت: هذا الكلام فيه ميل الى سوء الظن بالعامة وهم جمهور الامة . قلت : ليس فيه ميل الى سوء الظن بهم وانما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ما شاؤا أو يفعل بهم ما يضرهم فى دينهم ودنياهم مع ان سد الذريعة قاعدة من قواعـــد الشرع لاسيما فى المذهب المالكى ، ولامر ما جاءت الشريعـة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد ونحوها ورد الاسباب والمسببات كلها الى الله تعالى . مع ما فى استعمال هذه الكرنتينة من الاقتداء بالاعاجم والتزيى بزى الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم الى الاصابة والحكمة كما

قد يصرح به الحمقى من العوام . فامـا اذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهى الفتنة والعياذ بالله ؟ فاى مفسدة اقبح من هذه ؟ فالحاصل ان الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القـول بحرمتها ، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير . وقد ذكر العلامـة الحـافظ القسطلانى فى تفسير سورة النساء من الجامـع الصحيح عند قـولـه تعالى : « ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتـم مرضى أن تضعـوا أسلحتكم وخذوا حذركم » ما نصه : « دل ذلك على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب » اهـ . وهو يقتضى بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأى وجه كان ، ولا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذى ليس فيه مفسدة شرعية ، كعدم القـدوم على الارض التى بهـا الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعد الشريعة كبعض العلاجات المستعملة فى ابانـه المنقولة عن أئمة الطب ، امـا بالوجه الذى يشتمل على مفسدة أو مفاسد كهذه الكرنتينة فلا . هذا ما تحرر لنا فى هذه المسئلة والله أعلم .

ولما وقف على هذا الكلام اخونا فى الله العلامة الاستاذ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى وهو اليوم قاضى حضرة مراكش كتب الى ما نصه : « وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التى لا تفى بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة فى الجهات المتعددة ، ولا يخالف فى هذا الحكم الا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق الا الضلال » ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك ، تركناها اختصارا والله تعـالى المـوفق بمنه .



١٨٦

وفاة المنصور رحمه الله

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع الى مراكش ، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص الى أن دخلت سنة اثنتى عشرة وألف فانتشر الوباء فى بلاد الغرب أيضا فكان مصاب المنصور به على ما نذكره .

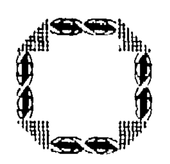
قال صاحب الاصليت وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسى المعروف بأبى محلى : « كنا نسمع أن السلطان المنصور اذا خرج من مراكش قاصدا مدينة فاس لا يرجع الى مراكش ، وذاع هذا الخبر فى الناس قبل نزوله فكان الامر كذلك ، ثم لا أدرى من أين للناس بذلك ، هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الاشبه والله أعلم » قال : « ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضا لكن بعد الوقوع والنزول ، ان دخول رايات أبى العباس المنصور فى حياته للسودان واستيلاءه على سلطانها سكية فى دار امارته كاغو مع تنبكتو وأعمالها ، كل ذلك من امارات خروج الامام المهدى الفاطمى؟ وكذلك الوباء المنتشر فى هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء فى سائر البلاد حتى الآن ، وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران اما على يده أو باذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر » اه .

وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدى عميرة يوم الاربعاء حادى عشر ربيع النبوى سنة اثنتى عشرة وألف ، ودخل الى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفى هنالك ليلة الاثنين الموالى لتاريخه ، ودفن بازاء مقصورة الجامع الاعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور ، وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة عليه مفتى فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار

قال اليفرنى : « كانت وفاة المنصور بالوباء » وقال الشيخ أبو محمد عبد الله بن يعقوب السملالى فى شرحه لجامع شامل بهرام : « كان بالمغرب وباء

استطال به من سنة سبع الى سنة ست عشرة وألف ، وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الاعيان ، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله » ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره . قال اليفرنى : « وبه تعلم أن ما شاع على الالسنة من ان المنصور سمه ولده زيدان باشارة من أمه الشبانية فى باكور أوائل ظهوره ، وقطع عنه الاطباء الى أن هلك ، وان المنصور لما أحس بذلك قال : استعجلتها يازيدان لا هناك الله بهـا ؟ أو كلاما هذا معناه » : قالـوا : وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية ، فانه انهزم فى زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له ، لان المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به ما شاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة » اه . ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه الى مراكش فدفن بها فى قبور الاشراف قبلى جامع المنصور من القصبة ، وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيـل ، ومما نقش على رخامة قبره هـذه الابيات :

هـذا ضريح من غـدت	بـه المعـالى تفتخـر
أحمـد منصور اللـوا	لكـل مجـد مبتكر
يـا رحمـة الله اسرعـى	بكـل نعمى تستمر
وباكرى الرمس بما	ء من رضـاه منهمـر
وطيبـى ثـراه من	نـد كذكره العطـر
وافـق تاريخ الـوفـا	ة دون تفنيـد ذكـر
مقعـد صـدق داره	عنـد مليـك مقتدر



١٨٨

بقية اخبار المنصور وبعض سيرته

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازما يقظا مشاورا فى مهمات الامور ، وكان قد اتخذ يوم الاربعاء للمشورة ، وسماه يوم الديوان ، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأى فيما ينوب من جلائل الامور وعظيم النوازل ؛ وهنالك يظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول الى السلطان، قالوا : ومن حزمه انه كان متطلعا لاخبار النواحى بحاثا عنها ، غير متراخ فى قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطىء بالجواب ، ويقول : « كل شىء يقبل التأخير الا مجاوبة العمال عن رسائلهم » . وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم الا فى أوقات مخصوصة .

قال الفشتالى : « ولقد كنا بالباب يوما – يعنى معشر الكتاب – قبل أن يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبى عبد الله محمد بن على الفشتالى بأن ولدا له فى النزع فلم يملك نفسه أن ذهب الى داره ، فخرج المنصور على اثره فسأل عنه ، فقيل انه ذهب الى داره ، فاستشاط غضبا وبعث اليه فجىء به مزعجا ، وما شككنا فى عقوبته ، فلما مثل بين يديه قال له : « ما الذى ذهب بك ؟ » فذكر له أمر ولده وانه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب ، فرق له وقال : « ان امراض الصبيان قلما ينجع فيها الا طب العجائز، ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن » .

ومن حزمه انه اخترع أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقا ، فاذا سقط ووقع فى يد عدو أو غيره لا يدرى ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه ؛ فكان اذا جهز أحد أولاده ناوله خطا من تلك الخطوط يفك بها رسائله اليه ويكتب عنوانه كذلك .

ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقى فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد فى خط المشارقة ، ومما وقع له فى ذلك : أنه بعث بطاقة

بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبى عبد الله ابن عيسى يستدعى منه كتابا ، فبعثه ابن عيسى اليه وبعث معه بهذين البيتين :

سقتنى كؤس السرور دهاقا خطوط أتتنى فى مهرق
رأت كف أحمد فى الغرب بحرا فجاءت اليه من المشرق

وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالا طائلة يلزمهم بأدائها ، وزاد الامر على ما كان عليه فى عهد أبيه حسبما مر ، وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها اجحاف منه ومن عماله ، وكان غير متوقف فى الدماء ولا هياب للوقيعة فيها . قال اليفرنى : « وتتبع ما وقع فى ذلك يناقض المقصود من الاغضاء عن العورات والستر على الفضائح ، وقد ألمعنا لك بما يكون دالا على ما وراءه » . وذكر أن بعض عمال المنصور عدا على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالا فقدمت المرأة على المنصور بمراكش تشكو له ما نالها من عامله ، فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت الى أولادها بالباب وقالت لهم : « انصرفوا فانى كنت أظن ان راس العين صافية فاذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها » .

ويحكى أن الفقيه القاضى أبا مالك عبد الواحد الحميدى قد سافر فى جمع من فقهاء فاس وأعيانها الى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هى العادة ، فمروا فى طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا فى سلسلة واحدة ، وفيهم امرأة أخذها الطلق وهى فى كرب المخاض ، فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم ؟ فبقى ذلك فى نفس القاضى ، فلما جلس الى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه ، فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياما ، ثم ان القاضى تلطف فى القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة ، فقال له المنصور : « لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجىء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام فى أمن ودعة ، فان أهل المغرب مجانين مارستانهم هى السلاسل والاغلال » .

ولقد وفد القاضى المذكور على المنصور فى بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب الاغانى

من أهل فاس ، وقد كانوا وفدوا أيضا على المنصور على سبيل العادة ، فأخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصعة أعطاه اياها المنصور ، وبعضهم قال أعطاني كذا ، وقال الآخر أجازني بكذا ؛ مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء ، فقال القاضي : « لئن بلغت فاسا لأردن أولادي الى صنعة الموسيقى، فان صنعة العلم كاسدة ، ولولا ان الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين، ورجع المغني بشبابة الابريز » فنقل الى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام .

وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته : « عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه الى المنصور ، فقال له : « كم تساوي ضيعتك ؟ » قال : « سبعمائة اوقية » قال : « خذها وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان » فرجع صاحب الضيعة وأبلغ الى العامل كلام المنصور ، فأمسك برأسه ساعة ثم قال له : « ألحق بضيعتك » وغرم له كل ما أكل منها » اهـ .

وقال في المناهل : « كان للمنصور مصانع اخترعها ومآثر خلفها منها : المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس ، أحدهما خارج باب عجيسة ، والآخر قبالته بباب الفتوح ؛ وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون ، وهما من الاتقان بحيث لا يعرف قدرهما الا من وقف عليهما ، وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وتسعمائة. ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح ، وهما أيضا في نهاية الوثاقة والحسن . ومن ذلك معاصر السكر فانه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة . قال الفشتالي : « وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة » وقد تقدم انه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر ؛ ومن مآثره البيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور ، وقد تقدم الخبر عنها . وقال ابن القاضي في «المنتقى المقصور» : « ان اللباس المسمى بالمنصورية ـ وهو لباس من الملف ـ لم يكن مستعملا قبله ، وهو أول

من اخترعه واضيف اليه فقيل المنصورية » .

وكان فى مدة المنصور من الاحداث أنــه :

فى سنة سبع وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول ، قال فى المرآة : « لما انتهب الناس غنيمة وادى المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الاموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع ان البركة رفعت من الاموال من يومئذ». وفى هذه السنة ايضا أصاب الناس فى بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه ، وكان الرجل لا يزال يسعل الى أن تفيض نفسه فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة .

وفى سنة احدى وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوى نسبة الى جنوة من بلاد الفرنج ، كان أبوه نصرانيا وأمه يهودية ؛ وسبب اسلام والده ما حكاه أبو العباس الاندلسى فى رحلته : انه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلا ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم ، ثم بادر باخراج الفرس ؛ ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا : « ان المسيح جاء البارحة على فرسه الى الكنيسة وراث فيها » فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى فى شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل ، فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر الى بلاد الاسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم ، فنشأ مثلا فى العلم والولاية ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم . وكان رضى الله عنه يقول : « خرجت من بين فرث ودم » ؛ أخذ الطريقة عن أبى محمد الغزوانى وقدم عليه مراكش ثم عاد الى فاس فمات بها فى السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح .

وفى سنة خمس وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ العلامة الامام أبو العباس أحمد بن على المنجور ، كان متبحرا فى العلوم خصوصا أصول الفقه ، أخذ عن اليسيتنى وأبى زيد سقين العاصمى وأبى الحسن بن هرون وأبى مالك الوانشريسى وغيرهم .

وفى سنة سبع وتسعين وتسعمائة توفى الشيخ أبو الشتاء الشاوى دفين جبل آمركو من بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكنى بأبى الشتاء لان الناس قحطوا ولجأوا اليه فسقوا فى الحين ، وهو من أصحاب الشيخ الغزوانى . ويقال : ما لقيه الا مرة بقبيلتهما الشاوية فعينه ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان .

وفى ثامن عشر ربيع الثانى سنة ثلاث وألف توفى القاضى أبو محمد عبد الواحد بن احمد الحميدى ودفن بروضة الشيخ أبى زيد الهزميرى خارج باب مصمودة من عدوة فاس الاندلس وقد تقدمت بعض أخباره .

وفى سنة أربع وألف توفى الشيخ أبو الحسن على بن منصور البوزيدى المعروف بأبى الشكاوى دفين شالة وبها كان سكناه ، أخذ عن الشيخ المجذوب وأبى الرواين المحجوب وغيرهما ، وأولاده ينتسبون الى عيسى بن ادريس الحسنى دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم .

وفى سنة ست وألف توفى الشيخ الربانى أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعرى دفين تاستاوت من مشاهير الاولياء ، كان أول نشأته بمكناسة الزيتون ثم خرج الى البادية بعد أن صعبت عليه القراءة ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « انك لن تقرأ ولكنك شيخ » فخرج الى البادية وكان يظن انه يكون من اشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبى عمرو القسطلى ورجع الى باديته فبنى مسجدا فى الموضع الذى عين له شيخه لسكناه ، فيقال انه لما قيل له جعلت محرابه منحرفا عن القبلة اشار بيده الى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شىء قدير وكان الشيخ ابو عبدالله محمد الشرقى معاصرا له فقيل له: ان الشيخ ابن مبارك قال : « أهل زماننا محسوبون علينا » فقال : « اشهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك . وفى هذه السنة أيضا كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطال فيها ومات به جمع من الاعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور .

وفى سنة تسع وألف فى جمدى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس ،

ثم فى شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الاول تهدمت منه الدور والحوانيت ، وتهدم سد الوادى بفاس على وثاقته وإحكامه ، وهذا السد هو الذى كان جدده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى ، ثم جدده المنصور فى هذه المرة من أحباس القرويين .

وفى سنة عشر وألف توفى الشيخ العارف بالله الربانى أبو عبد الله ، ويقال أبو عبيد محمد (فتحا) الشرقى ابن الولى الصالح أبى القاسم الزعرى الجابرى ثم الرثمى (*) ، هكذا نسبه صاحب المرآة وغيره ، ورفع أبو على المعدانى فى كتابه « الروض الفائح » نسبه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبى عبد الله محمد الصالح ابن المعطى ما نصه : « ان الشيخ سيدى محمد الشرقى لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما عثرنا عليه ، أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت فى اجازاتهم وكذا فى تمليكاتهم » اه وهذا الشيخ ــ أعنى أبا عبد الله الشرقى ــ كان من أكابر أهل وقته ، يقال انه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الاولياء ، وبعث اليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته ، واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على أن وفد عليه زائرا ومدحه بقصيدة ذكر بعضها اليفرنى فى الصفوة ، وله مع أبى المحاسن الفاسى مراسلات ومواصلات ، ووقع بينهما كلام طويل انظر « ابتهاج القلوب » ؟ أخذ رضى الله عنه عن والده عن الشيخ التباع واعتمد على الشيخ الكبير أبى عبد الله محمد بن عمرو المختارى من أحواز

(*) وفى (نشر المثانى) عن الشيخ أبى عبد الله المسناوى فى نسب الشيخ المذكور السميرى هكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى تقييد لمؤلف الممتع : ما نصه : (هو من بنى جابر ثم من ورديغة ثم من الرثمة ثم من اولاد بحر ثم من أولاد سمير وكلهم ينتسبون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه) اه من خط مؤلفه

مكناسة ، وأخذ أيضا عن ابن مبارك الزعرى وأبى محمد بن ساسى ، وتوفى أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعيدان وقبره شهير نفعنا الله بـه وبسائر أهـل الله .



تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس

وأولـــــه :

الخبر عن دولة السلطان أبى المعـالى زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

فهرس الموضوعات

فهرس الاعلام والقبائل

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

فهرس الاماكن

حرف (ت)

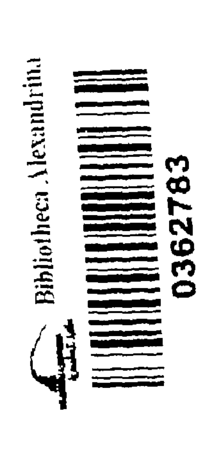
حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (م)


Bibliotheca Alexandrina
03362783